وليد فكري

تاريخ شكل تاني

بحثًا عن الحقيقة في صفحات مهجورة

تقديم
د. أحمد خالد توفيق

الرواق للنشر والتوزيع

تاريخ شكل تانى مقالات تم نشرها بموقع بص وطل

وليد فكري

الغلاف: أحمد مراد

المراجعة اللغوية: محمد حمدى أبو السعود

رقم الإيداع: ٢٣٣٥٥ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: ٣ - ٣٣ - ٥١٥٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

للنشر والتوزيع

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر

هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

فن التاريخ

تعاملنا جميعًا مع التاريخ بصورته الفجة في المدرسة، فقرأنا تاريخ مصر والعالم العَرَبِيّ والعالم بتلك الطريقة الجافة التقريرية المملة، على غرار:

أهداف الحملة الفرنسية على مصر: ١...... ٢......... ٣..........

نتائج الحملة الفرنسية على مصر: ١........ ٢.......... ٣..........

والويل كل الويل لمن ينسى رقمًا واحدًا من هذه الأرقام، أو ينسى تاريخًا واحدًا.. بالطبع يعرف الجميع أن هذا علم لا ينفع على الأرجح، وأن الزمن الافتراضي للمعلومة ينتهي لدى سكبها على ورقة الإجابة، فمن شبه المستحيل أن يبقى المرء متذكرًا تاريخ ميلاد بونابرت، لكن بعض الرواسب المهمة تبقى بلا شك لأنها أهم من أن تذوب نهائيًا، مثل تاريخ الحملة الفرنسية نفسها.

النقطة الثانية المهمة هي الانتقائية العالية في السرد. أنت لا تعرف كل شيء ولا ترى كل جوانب الصورة، ومن يقدم لك المعلومة لا يرى لك الحق في أن تعرف كل شيء، فأنت غير مؤهل وغير ناضج. إن الرقابة هواية عَرَبِيَّة قديمة حتى لو لم يبدُ لها هدف واضح. هكذا تتلقى مسلَّماتك الكثير من الصفعات وتتزلزل كثيرًا عندما تفتش أكثر. لم يكُن لمحمد نجيب وجود في كتب الدراسة كلها، وفجأة ظهر في السبعينات وعرفنا أنه مهم جدًّا. كان كل قادة الثورة ملائكة ذوي رؤى عليا لهذا الوطن، وفجأة عرفنا أنهم ليسوا جميعًا كذلك، أو هم على الأقل بشر مثلنا. في المدرسة تعلمنا أن مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان تلاعب بالتحكيم وأن الإمام عليّ ظُلم ظلمًا بيِّنًا، وأن يزيد بن مُعَاوِيَة كان سفَّاحًا وارتكب الكثير من المذابح. اليوم صار من المستحيل أن تقول هذا وإلا اتُّهمت في عقيدتك ذاتها، وعرفنا أن ما قُدم لنا في المدرسة كان انتقائيًا، واليوم يقدمون لنا تاريخًا انتقائيًا آخر يعيد الاعتبار للأمويين. سليمان الحلبي قتل كليبر.. لكنه لم يدرك أنه قتل أشد المتحمسين لخروج الفرنسيين من

مصر بعد فرار بونابرت المنفرد المهين إلى فرنسا، وهكذا جاء مينو المتعصب الذي يحلم بالبقاء في مصر إلى الأبد! (كريستوفر هيرولد).

أين الحقيقة؟ لماذا لا يقدمها لنا مؤرخ أمين دقيق بلا انحياز أيديولوجي، ولا يريد سوى الحقيقة؟

أول كتاب تاريخ محترم وقع في يدي كان «بونابرت في مصر» للمؤرخ كريستوفر هيرولد، ترجمة فؤاد أندراوس، ١٩٦٢. هذا أول كتاب تاريخ يبقيني ساهرًا ليلتين وأنا أعدّ الصفحات الباقية خوفًا من أن تحدث الكارثة وينتهي، وبدت لي الحياة قاسية جدًّا بعد انتهاء هذا الكتاب. كمية مذهلة من الحقائق والآراء، وإمتاع لا حدود له يقترب من الأعمال الأدبية، مع روح سخرية لا شك فيها. تعلمت من هذا الكتاب أن التاريخ قد يكون فنًّا.. بل هو كذلك.. المهم هو: من يكتبه؟

بعد هذا وقعت في يدي مجموعة وِل ديورانت الرهيبة «قصة الحَضَارَة»، مع سياسته الصارمة القاضية بألا يضيع وقته في وصف الحروب والغزوات، بل وصف ما قدمته كل حَضَارَة لمسيرة البشرية من تعليم وفن وصناعة وعلوم.. لا أحد يذكر غزوات البابا لكن كل الناس يعرفون قصة مايكل أنجلو مع سقف الكَنِيسَة. هذا هو ما يبقى. وكان الرجل موفقًا وحياديًّا جدًّا.

فيما بعد قرأت كتابات الأستاذ جمال بدوي شديدة الإمتاع؛ لقد غاص الرجل في تاريخنا وهضمه وحوله إلى حواديت مشوقة لكنها لا تُنسى، وعلى الجانب الأكاديمي كان كل كتاب أو مقال للراحل العظيم يونان لبيب رزق عيدًا ثقافيًّا.

من ضمن الكتب التي تندرج ضمن قائمة «فن التاريخ» كتاب رشيق فائق الإمتاع كتبه صيدلي شاب هو حامد محمد حامد، وهو تجميع مقالات نُشرت في موقع «بص وطل» من قبل. الكتاب اسمه «حدوتة مِصْرِيَّة»، وهو تقريبًا يكدح في ذات الكرمة التي كدح فيها كريستوفر هيرولد، وإن كثف اهتمامه بالْمِصْرِيِّين والمماليك في الحقبة ذاتها. كتاب محترم

رغم أن مؤلفه مؤرخ هاوٍ لا يملك أدوات البحث التاريخي بعد، لكن كم شهادة دكتوراه في الفيزياء نالها أديسون أو ماركوني؟ باستير لم يكُن طبيبًا وسيد درويش لم يتخرج في معهد الموسيقى. لذا فقد وضعت الكتاب في مكان متميز من مكتبتي.

تابعت بحماسة مماثلة مقالات الشاب الجادّ وليد فكري في موقع «بص وطل»، التي كانت تحمل اسم «تاريخ شكل تاني». هناك محاولة للوصول إلى منهج في عرض التاريخ يجمع بين الفن والدقة، وهناك الكثير من الجهد والعرق والتفتيش في المراجع وأمهات الكتب. وليد صديق عزيز قديم، لكن هذا لا يقلل من مصداقية كلامي، ويكفي أن أقول إنني أحتفظ بمعظم هذه المقالات على جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لأرجع إليها من وقت إلى آخر، لأنني بالفعل لا أملك الصبر ولا الطاقة اللذين يسمحان لي بعمل هذا الجهد بنفسي.

لنفس السبب ظللت أنتظر الكتاب الذي يجمع هذه المقالات طويلاً، والسبب طبعًا هو أنني ابن الكتاب ولا أستريح إلا معه. الكتاب الذي تثني صفحاته وتضع فيه خطوطًا وتسكب عليه كوب الشاي وتشم رائحة أوراقه. القراءة على الإنترنت مناسبة لموضوعات كثيرة، لكن هذا النوع من الكتب بالذات يجب أن يُطبع.

أتمنى التوفيق لهذا الكتاب، وإن كنت أعتبره هدية لي أنا وحدي، لأنني أول من انتظره طويلاً. وليد ما زال صغير السن رغم صلعته المهيبة وصوته العميق، وهذا يعد بأنه ما زال في البداية وسوف يطور أدواته بلا توقف في الأعوام المقبلة. فقط علينا أن نفرك أيدينا في شغف وننتظر.

د. أحمد خالد توفيق

عن هذا الكتاب

هذا الكتاب ـ بكل صراحة ـ ليس موجَّهًا في الأساس إلى قارئ التاريخ المحترف، ولا للباحث الأكاديمي المحنك، بل هو موجه في المقام الأول للشاب الذي يخطو أولى خطواته متحسسًا طريقه في القراءة والبحث في التاريخ، ويعوقه ما هو شائع ـ ظلمًا ـ عن هذا المجال الممتع من أنه كئيب ممل مزدحم بالمعلومات الثقيلة على العقل، وهي للأسف شائعة منتشرة بشكل أدى إلى حقيقة مؤلمة، هي أن نسبة ضخمة من شبابنا تنقصهم أبسط المعلومات عن تاريخنا، وتواريخ الأمم المحيطة بنا والمتفاعلة معنا عبر القرون. فضلاً عن نسبة أخرى ليست بالأقل تم «حشو» التاريخ في عقول أبنائها بشكل تلقيني سطحي مليء بالمغالطات والقوالب الجامدة والصور النمطية، من دون أدنى محاولة لجعل مجال التاريخ مادة محركة للذهن ومستفزة للعقل للبحث والتمحيص، والاقتناع ـ فقط ـ بما يقبله عقل القارئ أو المتلقي للمعلومات.

والحمد لله أن لدينا بين كتاب التاريخ الْمِصْرِيِّين والعرب من جعلوا مهمتهم تحريك العقول لا حشوها، من خلال عرضهم وتحليلهم للتاريخ القديم والحديث بشكل محايد سلس يحترم عقل القارئ، أذكر من هؤلاء الدكتور عبد الوهاب المسيري، والدكتور جلال أمين، والدكتور قاسم عبده قاسم، والدكتور جمال بدوي، والأستاذ جمال الغيطاني، والأستاذ محمد حسنين هيكل، والدكتور حسين مؤنس، وغيرهم ممن أثْرَوا ثقافتنا العَرَبِيَّة بالعديد من الكتابات التاريخية التي احترمت القارئ فاكتسبت واكتسب أصحابها احترامه.

في هذا الكتاب «تاريخ شكل تاني» أحاول أن أقلب بعض صفحات التاريخ مع القارئ الشاب، محدِّثًا إياه لا ككاتب مخضرم يجلس وراء مكتبه ويلقي محاضرة، بل كشاب مثله (يقاربه في العمر) لم يفعل سوى أن قرأ أكثر منه قليلاً في التاريخ، وأعمل ذهنه في قراءة ما بين سطوره، ليخرج في النهاية بهذا العمل البسيط الذي أرجو أن ينطبق عليه جزء من

عبارة العلامة أحمد أمين: «إن الكتاب الجيد هو الذي تشعر بعد قراءته أنك إنسان أفضل، وأنك قد أُضيف إليك الجديد».

تحياتي

وليد فكري

الإسكندرية ٣ من أكتوبر ٢٠٠٩

العابثون بالتاريخ - الجزء الأول

عندما نحاول تَخيُّل التاريخ في هيئة رجل، فإن أغلبنا يراه شيخًا وقورًا ذا لحية بيضاء، يجلس وسط مئات المخطوطات والكتب منهمكًا في الكتابة بريشته على رِقٍّ من جلد الغزال، وقد عَلَت عينيه نظرة حكيم محنك.

ولكن تلك الصورة الجميلة تشوهت، فالشيخ الوقور اعتلَت كتفيه زمرةٌ مزعجة من الأطفال، أخذت تتقافز وتجذب لحيته وتقلب حبره على مخطوطاته وكتبه وتلطخ به وجهه، وتمزق أوراقه وتصنع بها صواريخ تطيِّرها، وطرطورًا تضعه على رأس المسكين الذي أُنْهِكَ صوته في استغاثات مؤلمة لكي يكفّوا عن عبثهم المهين!

من قال عبارة «التاريخ يكتبه المنتصرون» قال فأوجز، فتلك الحقيقة الموجعة قديمة قِدَم الإنسان نفسه، منذ كان يحتفل بانتصاره في كهفه بين عشيرته، متغنيًا بفضائله ومُعَرِّضًا بعدوّه المهزوم، مرورًا بالشاعر العَرَبِيّ الذي كان يُطلِق للسانه العنان في تعديد محاسن قومه المظفرين، ومخازي القبيلة المنهزمة، ووصولاً إلى بعض المؤرخين الذين كانت أقلامهم تتغير مع تغيّر الدول والملوك. نعم، هي مسألة قديمة، وأشهر أمثلتها ما جرى خلال بدايات العصر العَبَّاسِيّ الأول من اشتراء رجال السلطة الجدد ذممَ بعض المنتسبين إلى كُتَّاب الأحاديث النبوية، لتأليف أحاديث تتحدث عن فضل بني العباس وحقهم الإلهي في الحكم، أو إطلاق لأقلام الكُتاب المأجورين ليسهبوا في ذَمِّ دولة بني أمية الساقطة ورموزها، حتى بلغ الأمر إلصاق أخطر التهم بحق مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان نفسه، رغم أنه ـ وفق المفهوم الإسلامي ـ صحابي جليل وأحد كتاب الوحي ورواة الحديث. عملية تخريب منهجية منظمة لتاريخ دولة بائدة ما زالت تنتج آثارها حتى يومنا هذا، إذ إن أغلب الناس لا يعرفون عن بني أمية إلا قضية توريث الحكم من مُعَاوِيَة إلى يزيد، ومقتل الحسين على يد رجال يزيد نفسه، حتى إن البحث عن معلومات دقيقة سليمة عن دولة الأمويين يتطلب جهدًا شاقًّا وبحثًا شديد الحرص، ونسبة كبيرة من الشباب حاليًا لا يعرفون دور مُعَاوِيَة في

بناء الدَّوْلَة الإِسْلاميَّة وتدعيم هيبتها في قلوب جيرانها، ولا يعرفون حقيقة أن مُعَاوِيَة هو من أجمعت الأمة على ولايته لرأب الصدع الذي أصابها خلال فترة من الحروب الأهلية، فيما بعد اغتيال الخَلِيفَة عُثْمَان بْن عَفَّان، وأنه (مُعَاوِيَة) نجح بالفعل في توحيد الْمُسْلِمِينَ بعد الشقاق. هذا مثال، بسيط، لما يمكن أن يصنعه «قلم المنتصر» في التاريخ.

والمثال ليس حكرًا على العصور القديمة، ففي عصرنا الحديث، كان من ضروب المحال، حتى وقت قريب جدًّا، أن تجد حديثًا مكتوبًا أو مسموعًا عن إيجابيات العهد الملكي في مصر، بل ربما كان هذا، في بدايات عهد الثورة، مُعتَبَرًا من أعمال الخيانة ومعاداة الشعب! وبلغ الأمر أنه عند عرض أي من أفلام ما قبل الثورة، كنت في أي مشهد به صورة للملك فاروق، تجد شخبطة سوداء على الفيلم تغطي الصورة، كأنما لم يوجد من الأساس ملك اسمه فاروق، ونجد معظم ما كان يُكتَب عنه ـ حتى وقت قريب ـ لا يتحدث إلا باتهامه بالسُّكْر والعربدة والفساد وضعف الشخصيَّة، في حين أن كثيرين ممن عاصروه من الكُتاب الثقات نفوا عنه تلك التهم، وعندما تولى جمال عبد الناصر الرئاسة بعد انقلابه على الرئيس محمد نجيب، ظهرت في كتب التاريخ المدرسية عبارة «جمال عبد الناصر هو أول رئيس جمهورية لمصر»، تلك العبارة بقيت في تلك الكتب حتى سنوات قريبة جدًّا، في إنكار فجٍّ لحقيقة وجود رئيس اسمه محمد نجيب! وما يثير الغيظ أنها كُتِبَت وهذا الأخير على قيد الحياة، إذ يسجل من عاصروا ذلك أنه فوجئ ـ في أثناء وضعه قيد الإقامة الجبرية ـ بابنه التلميذ يعود من المدرسة باكيًا وهو يريه تلك العبارة في كتاب التاريخ المدرسي!

والحقيقة التي يتجاهلها من يمارسون عبثًا كهذا، أنه لا يضيف لعهد أو نظام أو زعامة جديدة، بقدر ما ينتقص منها، فهو ببساطة يعكس ضعف ثقة تلك الزعامة في مبررات وجودها، ويبرر بالتالي اضطرارها إلى فرض «تاريخها» على الناس، من خلال إلصاق التهم الزائفة بالسابق، والمبالغة في تعظيم الحالي، حتى لتشعر أحيانًا أن كل مساوئ السابق تتلخص في أنه «سابق». وهو أمرٌ لا يجري فقط في نطاق الشعب الواحد، عند سقوط نظام وصعود آخر، بل إنه كثيرًا ما يجد له مجالاً في ما يتعلق بهزيمة دولة أمام أخرى، فعندها تُشرع الأسلحة وتُسَنُّ السكاكين على طريقة «العِجل وقع»، ولكن هذا النوع من «كتابات

المنتصرين» أقل خطورة، فمن الطبيعي جدًّا للكاتب المنتمي إلى دولة أن يتحيز لها، لكن تبقى حدود الأمانة العلمية ثابتة. المشكلة أن تلك الحدود تنهار عندما يحاول هذا الكاتب إضفاء النقائص، كالجبن والغباء والضعف، على العدو المهزوم، بشكل ينتقص من قيمة النصر، فأي قيمة لانتصار تَحقَّق على عدوٍّ جبانٍ غبيٍّ ضعيفٍ؟

ومن يفعلون هذا، ومن يدعموه أو يشجعوه، إنما يُغفِلون حقيقة واضحة، هي أن البحث عن نقائص الخصم المهزوم يبدأ من حيث تنتهي القدرة على إيجاد أي إيجابيات حقيقية للمنتصر!

ليس هذا فحسب، بل قد يغتصب مزور التاريخ، الذي يمثل الجبهة الظافرة، ما ليس له ويضيفه إلى نفسه، كما كان يُنسَب لبعض ملوك مصر القديمة أنهم كانوا يمحون أسماء أسلافهم عن المعابد ويضعون مكانها أسماءهم، أو كما فعلت أُورُوبَّا، في العصور الوسطى، بنسبة لا بأس بها من اختراعات العلماء العرب الأندلسيين، فأضافتها إلى رصيد علمائها بينما سعت، من جانب آخر، لتصوير الحَضَارَة العَرَبِيَّة في هيئة الدَّوْلَة البربرية التي ترسل جيوشها لغزو البلاد وسفك دماء الشعوب، بينما جنودها يصيحون بوحشيَّة لا بِوَرَع «الله أكبر»! ولولا كُتَّاب ومفكرون أمناء، كزيجريد هونكه ومايكل هاميلتون مورجان، تحدثوا عن إنجازات علماء العرب والْمُسْلِمِينَ، ما كان الغرب ليرى الصورة التي تعمد البعض طمسها في إطار مسلسل تزييف التاريخ.

والتاريخ كما يتضمن كُتَّابًا ضنُّوا بذكر الحقائق الكاملة عن المهزوم، تَضمَّن من اعترفوا بإيجابياته، كاعتراف كتّاب التاريخ المصري القديم بفضل الهِكْسُوس في نقل العجلات الحربية إلى مصر، أو إقرار المؤرخين العرب بدقة التنظيم الإداري للفرس، الذي أخذه عنهم بناة الدَّوْلَة الإِسْلاميَّة الأولى. فهل نقص هذا من قيمة انتصارات أحمس على الهِكْسُوس أو الْمُسْلِمِينَ على كِسْرَى؟ إطلاقًا! إذن فلنعترف بأن رغبة المنتصر في احتكار التاريخ لصفِّه هي درجة فادحة من ضعف الثقة بالنفس أو بقيمة النصر، تظهر لاإراديًّا في شكل افتراءات خالية من الصحة، ربما وضعها من وضعها بحسن نية، ولكنها تؤدي إلى نتيجة عكسية

عندما يأتي يوم، ودائمًا يأتي هذا اليوم، تَتَكَشَّف فيه الحقيقة، وتلتصق صفة الكذب بالمنتصر منتزعة منه أي أمجاد أضفاها عليه نصره!

والغريب أن من يمارس كذبًا كهذا، يتجاهل حقيقة أن مَن بعده لن يأخذوا كلامه على أنه كلام مقدس لا يجوز البحث في حقيقته، تمامًا كذلك الكاتب الذي كان يُملي على فتاه كلامًا في مدح سلطان، فسأله الفتى عن حقيقة هذا الكلام فأجابه قائلاً: «اكتب يا فتى، فإنما هو أنا وأنت!». وصول نص هذا الحوار إلينا يُظهِر إلى أي حَدٍّ قد تبلغ فضيحة المؤرخ الكاذب أو المتلاعب، ما يؤدِّي بتلقائية إلى سقوطه، وسقوط ما بذل جهدًا مضنيًا في تزويره، من أعين الناس!

أما على الجانب الآخر، جانب المهزوم، فالكذبة عادة ما تكون أكبر، على مبدأ جوبلز (وزير الدعاية في ألمانيا النازية): «يجب أن تكذب كذبة كبيرة ليصدقها الناس»، فعلى سبيل المثال، الصادم حقًّا، تتضمن بعض الكتابات الأجنبية، العبارة الآتية شكلاً أو مضمونًا: «إِسْرَائِيل هزمت مصر في حرب يوم الغفران (أكتوبر ١٩٧٣)!»، والكارثة أنها تَلقَى تصديقًا شديدًا، لا من العوامِّ فحسب بل من فئات من المثقفين في بعض بلدان العالم الغربي! ومهندسو تلك الكذبة لم يكتفوا بوضع العبارة، بل أضافوا إليها الدعامات المكوّنة من التحليلات الخادعة والتفسيرات الملتوية، ببراعة مخيفة تجعل الرأس يدور. وهذا النوع من التلاعب الموجه إلى الخارج، أقل خطورة من ذلك الموجه إلى الداخل. فعلى سبيل المثال، تتجاهل نسبة كبيرة من الكتابات الْمِصْرِيَّة عن نكسة يونيو ١٩٦٧ أي حديث عن السلبيات التي أدت إلى وقوع الهزيمة، بينما تسهب في إلقاء أسباب من نوعية سعي العدو لنشر الإدمان بين الشباب (كما لو كان هذا مسيئًا إلى العدو فحسب!)، أو تآمر الدول الكبرى على مصر، أو تَخلِّي بعض الدول الشقيقة عنها! كأنما لم تكُن لدينا سلبيات فادحة وفاضحة، اعترف بها بعض قيادات الجيش نفسه وكثير من المفكرين والسِّيَاسِيّين المعاصرين للنكسة! والقارئ يشعر بالضياع في التناقض بين هذا وذاك..

بل ويوجد مثال، هو نوع من الكوميديا السوداء، للهزل التاريخي، يتكرر أحيانًا في بعض الدول الصغيرة، عندما تتعرض للاحتلال، وتتدخل قوى كبرى لتحريرها، تُفاجَأ بتلك الدَّوْلَة تصنع من يوم تحررها، الذي لم تبذل فيه أدنى جهد، عيدًا للنصر، تتغنى فيه ببطولة أبنائها وشجاعة أشاوسها، الذين ربما دخل الاحتلال بلادهم ورحل عنها قبل أن يدركوا ذلك! بل وتضيف هذا اليوم وتلك البطولات المزعومة إلى كتب تاريخها، وتدرِّسه للطلبة في المدارس بكل حماس، ما يذكرني برواية «مُحِبّ» عندما غار أهل القرية من القُرى المجاورة التي بها قباب للأولياء، بينما هم ليس لديهم أولياء من الأساس، فبنوا قبة خالية على أمل أن يسكنها يومًا ولِيّ، ثم اخترعوا وليًّا بالفعل وتقربوا إليه بالقرابين والنذور!

ومن أصناف عبث المهزوم بالتاريخ، افتعال المصائب أو استغلالها لتبرير ارتكابه مصائبه الخاصَّة التي ربما كانت أشنع مما جرى له. وأشهر نموذج لهذا النوع هو ما تفعله الحركات الصهْيَونِيَّة، وإِسْرَائِيل نفسها، من ادّعاء دائم لتعرض الْيَهُود للاضطهاد، قديمًا وحديثًا، في سعي لتبرير أي ممارسات وحشيَّة وأي اعتداءات ضِدّ جيرانها! فتجد الكتابات الصهْيَونِيَّة تزخر بالوصف الملحمي المؤثر لما فعله نبوخذ نصَّر الْبَابِلِيّ بالْيَهُود من سبي وتقتيل، وما ارتكبه الرُّومَان في حقهم من إلقاء في حلبات مصارعة الأسود، وما قام به هتلر من محرقة مزعومة وتجارِب وحشيَّة في معتقل أوشفيتز، رغم أن ما جرى لهم من اضطهاد لا يزيد على ما جرى للأقباط على يد الرُّومَان لخروجهم عن المذهب الإِمْبِرَاطُوري، أو لِلْمُسْلِمِينَ في الأندلس على يد محاكم تفتيش قشتالة من طرد وتنصير جبري، أو للمسيحيين في اليمن على يد يُوسُف ذي نواس (الْيَهُودي!) الذي ألقاهم في أخدود النيران. إضافة إلى ما جرى من بعض كُتَّاب التاريخ الْيَهُوديّ الذين أخرجوا شعوبًا كاملة من الجنس السامي (الآراميين، والفينيقيين، والكنعانيين)، وهم السُكان الأصليون لفلسْطِين ولبنان وسوريا، لأسباب لا أراها خفيَّة! هذا النوع من التلاعُب بالحقائق التاريخية، سواء بالاختلاق أو بالتضخيم المبالغ فيه لآثارها، لا يختلف كثيرًا عمن يفتعل لنفسه عاهة ليشحذ بها، وليكسب تعاطفًا يعمي الأعين عن أي كوارث يرتكبها! ويبلغ العبث أقصى درجاته من خلال فرض بعض الدول قوانين تُجَرّم جنائيًّا وتحت عقوبات قاسية، أي إنكار، ولو على أساس

علمي، لتلك التلاعبات التاريخية الفاضحة! هذا نوع «فظ» من العبث بالتاريخ! ولكنه نوعٌ مبرَّر واضح الأسباب والأهداف والنتائج، لا أراه يحتاج إلى تفسيرات أو تحليلات، بقدر ما يحتاج إلى مواجهة صادقة منظمة من البقية الباقية ممن يراعون للتاريخ حرمته، وللحقيقة قدسيتها! ويحتاج إلى ثقة في مبدأ «يمكنك أن تخدع بعض الناس لبعض الوقت، ولا يمكنك أن تخدع كل الناس كل الوقت!».

كل هذه الأمثلة والأنماط من تحريك التاريخ وفق الأهواء والمصالح، مِن قِبَل المنتصرين والمهزومين، تغيّر وضعه من «أمر واقع» إلى «مفعول به»، وما يُفعَل في التاريخ لا أجد له وصفًا غير أنه «عيب وحرام!»، وهو كذلك يمثل أولا إهانة لأصحاب العقول، ونَصْبًا على ناقصي الثقافة والمعرفة، في استغلال صارخ لقدرة صاحب القلم على توجيه «الجماهير الغفيرة» التي يسعى كل صاحب مصلحة في اللعب بالتاريخ إلى برمجتها لصالحه، من خلال دس «التاريخ الزائف» لها في كل مقروء ومسموع ومرئي. تلك الجماهير التي صار تسييرها وتلقينها ما تشاء المؤسسات الحاكمة، وأصحاب المصالح، فنًّا وعلمًا له قواعده ونظمه ومدارسه ونظرياته، سواء كانت تلك الجماهير «جماهير محلية» ممثلة في مواطنيه، أو «جماهير عالميَّة» تمثل الرأي العام العالمي. وليت هذه الصور من العبث حصرية، ولكنها، للأسف، تبقى مثالاً لا حصرًا، أو نقطة في بحر.

العابثون بالتاريخ - الجزء الثاني

الحاضر هو نتيجة تسلسل أحداث ووقائع سابقة، تسلسل بدأ في الماضي، فلو تم تقديم هذا الماضي بصورة غير متقنة، لأدى هذا بالضرورة إلى خلل رهيب في حاضر القارئ، ربما لا يُدرَك وجوده سريعًا، تمامًا كالفيروسات الخطرة التي تتخذ فترة كمون، ثم تعلن عن نفسها وتعيث فسادًا. والتاريخ لا يتسامح مع من يسيئون معاملته. والقارئ المتمرس يتضامن مع التاريخ في قضيته، ولا يبدي أي تهاون مع الكاتب الذي يحس (القارئ) أنه يستهين بعقله أو لا يقدره حق قدره.

ومن أخطر صور استهانة كاتب التاريخ بقارئه استخدام الكاتب تقنية «تقديس البطل» في عمله، بمعنى أنه يقدم الشخصيَّة محور عمله في صورة مَلَك أو قديس بلا أي سلبيات أو أخطاء، ولو وُجدَت تلك الأخيرة لعزاها إلى حسن نية بطله أو إلى تعرضه للخداع والتآمر، أو ربما حاول إظهارها في مظهر الأعمال العظيمة التي أساء العالم فهمها، بل ويعقِّب أحيانًا على كل فصل من العمل بمبحث صغير يذكر فيه الدروس المستفادة من هذا الموقف أو ذاك، مِمَّا كان بطل الكتاب محورًا له.

كأنما ليس من المقبول وجود أي عيوب لشخص، فقط لأنه محور عمل تاريخي يكتبه هذا الكاتب الذي ينسى، أو يتناسى، حقيقة أن التاريخ من العلوم الإِنْسَانِيَّة، التي لا يمكن أن تنفصل عن واقع أن الإنسان، أي إنسان كان، به سلبيات وإيجابيات، وأن موقعه من عظمة الشأن أو حقارته إنما يتحدد وفقًا لنوعية وكمية مزاياه وعيوبه وطريقة توظيفه لمزاياه وتعامله مع عيوبه، لا لمجرَّد وجود عيوب به أو خلوه منها، لو كان خلوّ المرء من العيوب أمرًا واردًا أصلاً. وهو كذلك انفصال عن طبيعة العلم كأداة يبدأ عملها في بحث الأمر الواقع، بغرض تحقيق ما نحب أن يكون يومًا أمرًا واقعًا.

قد يفسر البعض استخدام هذا الأسلوب برغبة الكاتب في تقديم قدوة للقارئ الشاب أو حديث السن، وهو عذر أقبح من ذنب، وغالبًا ما يؤدي هذا الأسلوب إلى نتائج عكسية تمامًا، فأولاً قد يدرك القارئ أن الكاتب يتحدث عن شخص مستحيل الوجود، من منطلق إيمان القارئ بأن لا أحد كامل، بالتالي يفقد الكاتب مصداقيته عند هذا القارئ، وقد تفقد الشخصيَّة (موضوع عمله) مصداقيتها بالتالي. وثانيًا قد ينبهر القارئ الشابُّ بالشخصيَّة إلى حَدِّ الشعور بالدونية عند عقد مقارنة لاإرادية بينه وبينها، وهو شيء طبيعي، بالذات لمن هم في بداية مرحلة المراهقة، إذ دائمًا ما ينبهرون بنموذج البطل كامل الأوصاف، بالتالي هذا الشاب غالبًا ما سيتحول عنده البطل إلى مصدر مغذٍّ دائم لإحساس بالنقص. وأخيرًا قد ينبهر القارئ ببطل العمل ويحاول تقليد نمط حياته، من دون مراعاة اختلاف الظروف الاجْتِمَاعِيَّة والثَّقَافِيَّة، والحياتية بشكل عامٍّ، بينه وبين بطله الذي ربما عاش في عصر شديد القِدَم، والنتيجة هي اصطدام الصورة المثالية في ذهن الشاب بالواقع، ما قد ينتج عنه إما انهيار فكرة المثل الأعلى تمامًا في ذهنه، وإما تمسكه بها على سبيل العناد لا أكثر، ما يزيد من اصطدامه بواقع مجتمعه وربما انفصاله فكرًا وفعلاً عنه، بعكس ما تهدف إليه قراءة التاريخ.

والكارثة أن ممن يستخدمون تلك الطريقة في الكتابة أساتذة جامعيين، ومثقفين كبارًا، من المفترض أن يكونوا أكثر إدراكًا لعواقب استخدام هذا الأسلوب.

والأسلوب الذي لا يقل خطورة هو أسلوب «إعادة كتابة التاريخ من المنظور الشخصي فقط»، بمعنى أن يتعصب الكاتب للمصادر التي تشترك معه في الوطن والقومية وربما المذهب الدِّينِيّ، ويتجاهل أي مصادر أخرى، فقط لأنها أخرى، وبالتالي تصبح زاوية نظره إلى الوقائع والأشخاص أكثر ضيقًا. هذا الأسلوب نجده يتكرر بالذات في الوقائع ذات الأطراف المتعددة، منها، على سبيل المثال لا الحصر، الحروب الصَّلِيبِيَّة، وموقف أهل السنة من دولة الفَاطِمِيّين، وفتح العرب لمصر، وتقييم الخِلافَة العثمانية، إلخ. فنسبة لا بأس بها من الكتابات تعرض وجهة نظر ثقافة الكاتب كأنها الحقيقة المطلقة، من دون التفات إلى الآخر ورؤيته للأمور.

صحيح أن بعض كُتّاب التاريخ يرون أن من مهامهم الدفاع عن قضايا شعوبهم، لكن ألا يمكن القيام بهذا مع تقديم وجهات النظر الأخرى كافة؟ وما دام المؤرخ يثق بقوة حجته فما ضرر عرض حجج الآخرين؟ لو أخذنا الحروب الصَّلِيبِيَّة مثالاً، هل الواقع الذي يقول إن نسبة كبيرة من جنود وقادة الجيوش الأُورُوبِّيَّة كانوا يؤمنون بأنهم يحاربون من أجل نصرة الرب ورضاه، يتعارض مع حقيقة ارتكابهم مجازر شنيعة بحق الْيَهُود والأرثوذوكس والْمُسْلِمِينَ؟ هل تتناقض حقيقة أن منهم من كانت دوافعه وطنية مع واقع يقول إنه معتدٍ جاء ليحتل أرضًا ليست له؟ ثم إنه بالفعل ثمة كُتّاب حرصوا على تقديم آراء مختلف المؤرخين في كتاباتهم، فعلى سبيل المثال ترجم الدكتور قاسم عبده قاسم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى، العديد من المؤلفات الأُورُوبِّيَّة عن الحروب الصَّلِيبِيَّة، عارضًا، بكل أمانة، وجهة نظر الكتاب الأُورُوبِّيِّين في حملات أجدادهم على الشرق، وأمين معلوف، الكاتب اللبناني، قدم صورة متكاملة الزوايا في كتابه «الحروب الصَّلِيبِيَّة كما رآها العرب»، وكذلك نقل الدكتور سهيل طقوش، أستاذ التاريخ الإِسْلامي، وجهات النظر المختلفة، للمؤرخين الْمُسْلِمِينَ والْمَسِيحِيِّينَ، في المعارك التي دارت في الأندلس بين الجيوش العَرَبِيَّة وجيوش الممالك الكَاثُولِيكِيَّة، فهل أضرَّ هذا إيمان القارئ بصدق قضية قومه في هذه الواقعة أو تلك؟

ولا يقتصر الأمر على الآخر «الغريب» فقط، بل يتمد أحيانًا إلى الآخر «القريب» الذي يشترك معنا في دين أو لغة أو أرض، ولكنه يختلف معنا في مذهب أو فكر أو موقف سياسي، فتجد بعض الكتاب والباحثين يتجاهلونه أو يفعلون ما هو أسوأ: تفسير موقفه بشكل تحكمه العاطفة والتعصب. فنجد، مثلا، كاتبًا وأستاذًا للتاريخ الإِسْلامي يهاجم محمد علي باشا ويتهمه بالزندقة والماسونية والتآمر على الإِسْلام، من دون دليل يُحتَرَم، من منطلق موقف محمد علي من الثورة الوهابية ومناصرته الدَّوْلَة العثمانية عليها، ومن دون أن يفكر الكاتب في عرض وجهات النظر، حتى ليخرج الكاتب عن موضوع كتابه الذي يتحدث عن تاريخ الدَّوْلَة العثمانية ليفرد مبحثًا كاملاً في ذمِّ محمد علي وذكر مثالبه، كأنما

يستجدي كراهية القارئ لهذا الوالي الذي كان كل ذنبه أنه اتخذ موقفًا لا يرضى عنه واضع الكتاب.

والمثال الذي أراه شديد البروز، تلك «الخناقة» الفكرية بين من يحب الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ومن يميل إلى خلفه الرئيس الراحل أنور السادات، فنجد بعض أهل الفئة الأولى لا يذكرون لعبد الناصر سوى محاسنه ولا يقولون عن السادات إلا عيوب عهده، وفي المقابل نرى بعض مؤيدي العهد الساداتي يتحدثون عن الرئيس السادات بتمجيد كامل، من دون التطرق إلى سلبياته كرئيس، ولا يقولون عن العهد الناصري إلا المثالب والنقائص، في تجاهل لحقيقة تفرضها إِنْسَانِيَّة هذا وذاك، هي أن كليهما إنسان له سلبياته وإيجابياته التي تنعكس عند كل منها على أدائه وأحداث عهده ونتائجه، حتى أصبح من المألوف حين يقول أحدنا إنه يحب أحدهما، أو يحترمه، أن يفترض السامعون مباشرة أنه يبغض الآخر ويزدريه.. وقِس على ذلك باقي العهود.

ومن الطرق التي تمثل إخلالاً بفن عرض المعلومة التاريخية، طريقة «وتابِعه قُفة» الشهيرة، وهي أن يقوم الكاتب، متعمدًا، بتقديم البطل على أنه عملاق بين أقزام، فبينما نجد فيه الإقدام والإيثار والشجاعة، نجد أن من حوله يتأخرون خطوة أو خطوات عنه، وهم دائمًا أقلُّ منه ذكاءً وأبطأ منه إقدامًا، كأنما هو يستمد عملقته من قِصَر قاماتهم، ونلاحظ ارتباط هذا الأسلوب في كتابة تاريخ الأشخاص بالأسلوبين السابقين، بل وتداخله معهما، في شكل أشبه بما يسميه الأطباء «متلازمة الأعراض» التي تشير كلها مجتمعة إلى مرض واحد!

وهذا الشكل من الكتابة قد يخدع القارئ للحظات، لكنه سرعان ما يدرك أنه يحمل من الإساءة إلى البطل أكثر مما يحمل من التمجيد، فهو يعني ببساطة أنه ليس بتلك العظمة التي أراد الكاتب إظهاره عليها، وأنه لولا ضعف من هم حوله وقصور هممهم لما كان له تقدم عليهم، ولبقي مغمورًا لا ذِكر له ولا شأن. وهذه نتيجة طبيعية للفخ الذي قد يقع فيه الكاتب الذي يخشى أن يطغى ذكر إحدى شخصيات عمله على ذكر شخصيته الرئيسية،

فيحاول تقليل شأن الجميع سوى بطله، وبالتالي ينتج عن هذا تشويهه لصورهم، وهو عمل لا يخرج عن دائرة تزوير التاريخ، حتى لو كان بحسن نية.

تلك الأساليب الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر، واقتصاري على ذكرها إنما سببه عدم التقائي بسواها من الأساليب الخاطئة، وهي فخ عميق لكل من القارئ، الذي قد يتأثر بها سلبًا، والباحث، الذي قد يتخذ كتبًا كهذه مراجعَ فتصيبه العدوى.

ولتجنب الوقوع في هذا «الفخ» ينبغي على القارئ، أيًّا كان هدفه من قراءة التاريخ، اللجوء إلى أكثر من مصدر، والتأكد من مصداقيته، ومحاولة الإلمام بظروف كتابة العمل، خصوصًا لو كان هذا الكاتب معاصرًا للوقائع المدونة، أو كان حديث عهد بثورة أو انقلاب، أو قام نظام معارض للمرحلة التي يكتب عنها، فهذه الظروف تفسر الكثير مما قد يقصد الكاتب تدوينه أو لا يقصده. فعلى سبيل المثال، قراءة تاريخ الأمويين من مؤرخ عاصرهم تختلف عن قراءته لمؤرخ عباسي، وكلاهما يختلف عن القراءة لمؤرخ لا ينتمي إلى هذا ولا ذاك، وبالنسبة إلى التاريخ الحديث مثلاً، فالقراءة عن العهد الملكي من معاصر له عاش تحت رعاية القصر، لن يشبه القراءة لكاتب نشأ في ظل الثورة، وكلاهما قد يتعارض مع آخَر يكتب عن الملكية بينما هو يعيش في أواخر القرن العشرين، وهكذا. وعلى أي حال، أنا أرى أن الجمع بين القراءة لهذا وذاك أثرى للذهن وأوسع للأفق، كما أنه يجعل القارئ في موضع القاضي الذي تتراصُّ أمامه الأدلة والوقائع، فيقبل هذا ويرفض ذاك.

كما ينبغي التأكد من مصداقية الكاتب نفسه لو أمكن، وهو شيء ليس بالعسير على القارئ المجرب، ربما هو أصعب على القارئ الجديد للتاريخ، لكنه مع الوقت يصبح ضرورة ملحَّة، ما دام يرغب في الحصول على حقِّه في تلقِّي معلومة سليمة. هذا الحق الذي لو لم يطالب به قارئ التاريخ، فربما من الأفضل له ألا يقرأه من الأساس.

هل كانت حقًا «جاهلية»؟

«الجاهلية»

هو تعبير دقيق عن الحياة الدِّينِيَّة للأغلبية العُظمى من عرب الجزيرة في فترة ما قبل الإِسْلام، وهو تعبير قرآني المصدر يفرق بين فترة عبادة الأصنام والأوثان وتقديس القوى الخفية، وتلك الفترة التالية التي استقر فيها الإِسْلام في نفوس أهل الجزيرة العَرَبِيَّة وأصبح هو الدين الأول بها.

ولكن للأسف، يعمم الكثيرون هذا التعبير على كل مظاهر الحياة في تلك البقعة من الأرض، بمختلف جوانبها، منكرين بذلك حقيقة تبدو للمتأمل في أحوال بعض مناطق الجزيرة، هي أن العرب قد عرفوا ـ في بعض مجتمعاتهم الصحراوية ـ شكلاً من أشكال الحَضَارَة الراقية، وإن اختلف عن الشكل المألوف في الحضارات السابقة والمعاصرة لهم، كحضارات مصر والعراق والشام واليونان. والقول بذلك لا يخالف الاعتراف بصحة وصف القرآن لتلك الفترة بـ«الجاهلية» إذ إن الوصف ينصبُّ على الدين وما يتعلق به من أمور ونشاطات، وليس بالضروري أن نعممه على كل أوجه الحياة فقط لأن العرب كانوا آنذاك وثنيين، فحضارات الفراعنة وبابل واليونان كانت تدين بالْوَثَنِيَّة، وليس من العدل إذن أن نفرق بينها وبين حَضَارَة العرب فقط لأنهم كانوا صحراويين.

ولأنها كانت مركز الثقافة والحياة العَرَبِيَّة، فلتكن «مكَّة» هي النموذج الذي نتناوله بالنظر والتأمل للوقوف على إجابة السؤال التالي: «هل كانت جاهلية عرب ما قبل الإِسْلام شاملة كل حياتهم، أم أنها اقتصرت فقط على الجانب الدِّينِيّ المذكور في القرآن الكريم وما ارتبط به من ممارسات؟».

لكي نجيب عن هذا السؤال، علينا أن نقلِّب بين أيدينا مختلف مكونات الحياة في مكَّة، ونراجعها في ضوء ما لدينا من ميراث حضاري يمكِّننا من الحكم ـ بالعقل ـ على أي مجتمع

إن كان متحضرًا أم بدائيًا.

I ـ المكونات المادية للحَضَارَة:

ـ النواة الأولى والتطوُّر السكاني:

فلننظر إلى مكَّة جيدًا من بداية نشأتها، فقد تَكوّن المجتمع المكي من قَبِيلَتَي جُرهُم وقطوراء اللتين استقرَّتا، عند بئر زمزم، مع النبي إِسْمَاعِيل بن النبي إبراهيم، وازداد الجميع التصاقًا بتلك البقعة عندما قام النبيان ببناء الكعبة.

القبيلتان سالفتا الذكر كانت حياتهما تقوم على الترحال والتجارة في أرجاء الأرض، بل إن بعض أَبْنَاء عمومتهما حكموا وادي النيل لفترة، وأعني بهم قَبَائِل الهِكْسُوس البدوية، أي أنهما كانتا على عَلاَقة بمختلف المدنيات المعروفة آنذاك. أما إِسْمَاعِيل وأبناؤه، فقد كانوا منحدرين من حضارتين عظيمتين: بابل، الوطن الأصلي لإبراهيم، ومصر، مسقط رأس هاجر. ما يعني أن العَنَاصِر الأولى المكونة للمجتمع المكي لم تكُن عَنَاصِر بدائية متأخرة، بل كانت عَنَاصِر مرتبطة بأغلب الحضارات الراقية في ذلك الوقت، ومتأثرة بها بطبيعة الحال.

البنيان السكاني لمكة تَعرَّض لتغيرات وإضافات كثيرة، فموقعها المتميز بين طرق التجارة، وطبيعة أهلها المتقبلة للآخر بسهولة، وقدسيتها الخاصَّة التي أضفت عليها أمنًا محببًا إلى النفس، جعلوا منها ملجأً ومستقَرًّا لوافدين من مختلف الأماكن. فالْيَهُود الفارون من السَّبْي الْبَابِلِيّ، والنَّصَارَى الهاربون من الاضطهاد الرُّومَانِيّ، وكل مستضعف في الأرض، كانوا يجدون إلى جوار حرمها مستقَرًّا آمنًا تحت حماية ساداتها الغيورين على تقاليد الضيافة ونجدة الملهوف. وبعد نهضتها التجارية وتحولها إلى مركز تجارة الجزيرة، ظهرت بها بيوت تتبع كبار تجار الفرس والروم واليمن والحبشة وترعى أعمالهم، فضلاً عن العبيد من كل عرق ولون الذين كان كل سيد مكِّي يحرص على اشترائهم والإكثار منهم، لحمايته وخدمته. أي أن مكَّة كانت مجتمعًا متعدد الجنسيات والأعراق، «كوزموبوليتان» بتعبير عصرنا الحديث.

كل تلك الأعراق والثقافات تعايشت معًا وتعاونت على بناء مجتمع قوي تجاريًّا وسياسيًّا، في وقت كانت الأرض فيه تغلي بالنزاعات العنصرية الطاحنة. وقد ساعدت على ذلك التعايش النُّظُم والقواعد التي وضعها سادة مكَّة، عبر السنين، للحفاظ على استقرار مجتمعهم، وما يترتب على ذلك من رواج اقْتِصَادِيّ.

ـ حكومة مكَّة:

ولأن المجتمع المتمدين لا يكون كذلك إلا باجتماع العَنَاصِر الثلاثة: الشعب والأرض والحكومة، فإن من أهم المكونات المادية التي صنعت حَضَارَة مكَّة حكومتها.

كانت مكَّة تخضع في بداياتها الأولى ـ شأن معظم المدنيات ـ لنظام «الحكم الفردي للأقوى»، فبعد موت إِسْمَاعِيل حكمتها قبيلة جُرْهُم، بعد أن غلبت قطوراء في النزاع بينهما على السيطرة على مقدرات البلد الحرام، وطالت أيام حكم جُرْهُم وطغت ونهبت أموال الحرم، وأحدثت في مكَّة من الفساد ما لم يمكن السكوت عليه، فهبَّت ثورة عاتية ضدها، وطُرِدَت من مكَّة لتحتل قبيلة خزاعة مكانها وتصبح سيدة مكَّة، ولأن الأيام دول فقد جاء الدور على خزاعة ليهتزَّ من تحتها مقعد الحكم، وكان هذا على يد أحد أحفاد إِسْمَاعِيل وإبراهيم وهو قُصَيّ بن كلاب (الجد الرابع لِلرَّسُول محمد) الذي قاد قبيلته وأزاح خزاعة عن مكانتها، وجمّع قومه حوله بعد أن كانوا متفرقين، فدانوا له بالولاء ولقَّبوه «قُرَيْشًا»، وهي كلمة مشتقة من فعل «التقريش» أي «التجميع»، وأصبحت لقبه واسم قبيلته كذلك.

قُصَيّ يُعَدُّ أول من وضع نظامًا مُحْكَمًا لإدارة مكَّة، فأولاً بدأ بخطوة جريئة هي نقله ديار قريش إلى داخل محيط الحرم، بعد أن كان أهل مكَّة يعيشون خارجه، وبذلك ضَمِن لقومه درجة عالية من الأمن من غارات القَبَائِل، حيث إن الجميع ـ مهما كانت خلافاتهم ـ كانوا يعظِّمون الكعبة ويهابون دخول الحرم مُغِيرِين.

الخطوة التالية كانت ضمان سكوت قَبَائِل العرب عن سكن قريش بمحيط الكعبة، فجمع قُصَيّ كبار قبيلته وقال لهم: «والله ما أعرف للعرب مكرمة خيرًا من الطعام، فأطعموا

الحَجَّاج واسقوهم يكفّوا ألسنتهم عنكم»! وهكذا تقرر أن يتولى سادة مكَّة إطعام وسقي وضيافة الحجيج من خارجها، وبهذا الشكل حقق قُصَيّ لقومه مكسبًا سياسيًّا ضخمًا، وميزة على سائر العرب.

بعد ذلك بدأ قُصَيّ في وضع النظام الداخلي لمكة، فجعل داره مكانًا لاجتماع الملأ لمناقشة أمور التجارة والسِّيَاسَة والحرب، وأيضًا لعقد الزيجات وإبرام الاتفاقات، وسُمِّيَت «دار الندوة» وصار حقًّا لكل رجل مَكِّيّ شريف بلغ الأربعين من عمره أن يدخلها، ويشارك في المناقشات بها، واتخاذ القرارات الهامة.

كذلك استحدث فكرة «القُبَّة»، وهي خيمة من الجلد يتم نصبها عند الحرب، ويجتمع فيها الفرسان وسادة قريش لوضع خطط الغارات والمعارك. وجعل للبيت الحرام مفتاحًا وحجابًا ونظامًا للخدمة وسمَّاها «الحجابة»، وأصبحت وظيفتا سقاية وضيافة الحَجَّاج وظيفتين محددتين بالاسم هما «السقاية» و«الرفادة»، وطوال عهد قُصَيّ وأبنائه الذين وزّع بينهم تلك المهام، عرفت حكومة مكَّة التطوُّر، فظهرت وظيفة «الأعنَّة» وهي بمثابة «قيادة الفرسان في المعارك»، و«السفارة» وهي مهمة يحدَّد لها رجال معينون عارفون بأحوال القَبَائِل الأخرى، يتولون التوسط بينها وبين قريش في السلم والحرب، و«المغارم» والقائم بها يكون بمثابة الْمُحَكَّم في النزاعات حول ديات القتلى وغرامات الاعتداءات الواقعة من حين إلى آخر، وحرص المكيون على أن يكون بينهم العالمون بالأنساب ليرجعوا إليهم إذا اختلفوا في نسب طفل إلى أبيه، أو إذا رغبوا في التأكد من صحة نسب من يطلب مصاهرتهم.

تلك المهام تم تقسيمها على العائلات القُرَشِيَّة، بحيث لا تحتكر إحداها الحكم، وبهذا الشكل صار الحَلُّ والعَقْد بيد جَمَاعَة أشراف مكَّة الذين كان كل منهم على رأس عائلة كبيرة تتولى وتتوارث وظيفة محددة، ويمكننا بذلك وصف نظام حكم مكَّة فيما قبل الإِسْلام بـ«نظام المؤسسات»

ـ العلاقات الخارجية:

مكَّة لم تكُن مجرَّد بلدة منعزلة في قلب الصحراء، فأولاً بقيت تربط الوافدين عليها علاقات بأوطانهم السابقة، وثانيًا كان وجود الكعبة فيها يجعل من موسم الحج اجتماعًا كبيرًا لمختلف القَبَائِل، وأخيرًا استحدث ساداتها ـ وعلى رأسهم جد الهاشميين هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ ـ نظام «الإيلاف»، وهي المعاهدة الكبرى التي جعلت مكَّة تتربع على قمة عالم المال والتجارة في الجزيرة.

الظروف هي التي دفعت هاشم وإخوته للتفكير في تلك المعاهدة، فلأن المسافات بين كبرى أسواق الشام والحبشة واليمن والعراق ومصر كانت شاسعة، وكانت طرقها تمر بين صحارى موحشة، كان كبار التُّجَّار في المناطق المذكورة يُحجِمون عن المرور في قلب الجزيرة، خصوصًا مع انتشار القَبَائِل الصغيرة الفقيرة التي احترفت قطع الطرق، حلاً لوضعها الاقْتِصَادِيّ المزري. أوجد هاشم حلاً لذلك الوضع، فاتَّفَق مع تلك القَبَائِل على أن تكفَّ عن قطع الطريق التجاري، بل وأن توفر للقوافل الحماية والضيافة عبر الطرق، مقابل أن تحمل القوافل تجارة تلك القَبَائِل مجانًا إلى الأسواق الكبرى، وتعود لها باحتياجاتها التي تعجز عن الإيفاء بها لنفسها. وسافر هو وإخوته بين ملوك الروم واليمن والحبشة وفارس، وما تبعتهم من دويلات عَرَبِيَّة صغيرة، واتَّفَقوا مع ملوكها وتجارها أن يفتحوا لهم أسواقهم مقابل أن يضمنوا هم الأمان لقوافلهم، وفقًا للاتفاق سالف الذكر مع القَبَائِل الواقعة على طرق التجارة. وبهذا الشكل راجت التجارة بين أكبر الأسواق العالميَّة، وأصبحت مكَّة مركز التحكم فيها، وعرف العرب ذلك الفضل لقريش، فازدادوا احترامًا لها.

II ـ المكونات المعنوية للحَضَارَة:

لم تكُن حَضَارَة مكَّة مادية فحسب، بل على العكس، غلب عليها الجانب المعنوي، فعرفت ثراءً معنويًّا فكريًّا وأدبيًّا وأخلاقيًّا كبيرًا كان بمثابة مفتاح تقبل بعض أهلها ـ ثم كلهم فيما بعد ـ الإِسْلام بما فيه من رقي روحي لا نهائي. والمثير للتأمل أن ذلك الشِّقّ بالذات من الحَضَارَة لم يكُن مقتصرًا على مكَّة وحدها، بل شمل معظم جزيرة العرب.

ـ القوانين والأعراف:

لم تكُن للعرب من قوانين مكتوبة إلا بعض العهود، ولكنهم كانوا شديدي الصرامة في التعامل مع قوانينهم وأعرافهم العامة، فكان معروفًا لكل قبيلة نظم وطرق تعامل جاراتها، وكذلك النظم العامة لتعاملها جميعًا.

كانت أشهر العقوبات هي «الخَلع»، فكانت القبيلة أو العائلة تخلع من يصرّ على مخالفة نظمها وأعرافها، ويعرضها للفضيحة بين القَبَائِل، فكان يقف أحد آل ذلك المارق في الأسواق الشهيرة وينادي بأن «فلانًا قد خلعناه، فلا نطالِب بدمه إذا قُتِل ولا نطالَب بجريمته إذا أجرم». وكان ذلك عقابًا رادعًا لمن يفكر في مخالفة التقاليد العتيدة للعرب، بالذات تلك المتعلقة بالجوانب الأخلاقية.

الثقافة والعلم:

مِمَّا يُظهِر تَحضُّر العَرَبِيّ القديم ذلك التداخل بين أدبه ـ بالذات الشعر ـ وحياته، فمساجلات الشعراء كانت معارك لا تقل أهمية عن معارك السيف والرمح، وكان الشعر بمثابة تدوين للأحداث السِّيَاسِيَّة والاجْتِمَاعِيَّة ـ بكل أنواعها وأشكالها ـ ولذلك فإن أغلب الشعراء لم يكونوا مجرَّد شعراء مأجورين بمكافأة من هذا ومنحة من ذاك، بقدر ما كانوا يمارسون عملاً يجمع بين «التأريخ» و«الإعلام»، ولهذا فإن القبيلة التي كان يظهر بها شاعر فذٌّ كانت تحتفي به وترعاه، وتهيب بها ما حولها من قَبَائِل وعائلات، ولهذا سجل لنا تاريخ الشعر أسماء لشعراء عظام رفعوا رؤوس آلهم، كحسان بن ثابت والزبير بن عبد المطلب بن هاشم، والأعشى، والنابغة الذبياني، وغيرهم.

أما الأشكال الأخرى للأدب، فكانت تقوم على الخطابة والحكمة وقصص السابقين، وكانت سوق عكاظ هي الملتقى الأبرز لكل من يمارس الأدب بكل أنواعه، كما كانت مساحة للمفاضلة والمفاخرة وتبادل الخبرات والتعرف على أشكال جديدة من الشعر والخطابة.

العلوم كذلك نالت نصيبها من اهتمام العرب، صحيح أن إمكانياتهم البسيطة في ذلك المجال لم تكُن لتجعلهم موضع مقارنة بحضارات عظيمة كبابل ومصر، إلا أنهم كذلك لم

يكونوا على جهل مطبق بالعلوم الضرورية لحياتهم، فالطب كان له نصيب من اهتمام بعضهم، كالحارث بن كلدة، الحكيم الشهير الذي طلبه كِسْرَى والتمس منه النصيحة الطبية، وعرفوا كذلك علوم القيافة والفراسة، وهي ما يشبه الآن «علم الفيسيونومي ـ علم الملامح البشرية»، فقد كانوا يحتاجونها لحل الشجار حول نسب رضيع إلى هذا الأب أو ذاك، وللتثبت من الأنساب، وعرفوا كذلك علم قص الأثر، وهو علم شديد الأهمية يعتمد على قراءة آثار أقدام البشر والدوابِّ لمعرفة تحركاتها وتتبعها، وقد برعوا فيه حتى بلغ أن بعض قصَّاصي الأثر كانوا يفرقون بين أثر قدم الثيِّب من البِكر! وعرفوا كذلك قراءة خريطة النجوم للاستدلال على الطريق، وعرفوا كيف يجدون آبار المياه الجوفية اللازمة لسقياهم خلال السفر. الخلاصة أن اهتمامهم العلمي تركز على ما يعنيهم من علوم ترتبط بطبيعة حياتهم القائمة على الرعي والتجارة، والتنقل هنا وهناك.

ـ الأخلاق والقيم:

فلنعترف أولاً أن ذلك الشِّق من الحياة كثيرًا ما يتأثر بالحياة الدِّينِيَّة، ولنعترف أيضًا أن الوضع الأخلاقي العَرَبِيّ فيما قبل الإِسْلام لم يكُن على ما يُرام، ولكنه كذلك لم يكُن بالحيوانية التي تصورها بعض الكتابات، فلم يعدَم العرب ـ بالذات المكِّيُّون ـ رجالاً ونساءً عرفوا الأخلاق الحميدة والتزموها، بل وكافح بعضهم الموبقات المنتشرة في المجتمع آنذاك. فقيم مثل «نجدة الملهوف» و«نصرة المظلوم» و«إكرام الضيف» كانت منتشرة بين العرب وممدوحة فيهم، أما النقائص مثل الزنا وشرب الخمر فينبغي أن نفصلها عن الأخلاق، لأنها «نقائص سلوكية» قد يكون مرتكبها متحليًا بالأخلاق الكريمة، بمقاييس مجتمعه، وعلينا أن نلاحظ أن أغلب من كانوا يفعلون ذلك كانوا يعتبرونه أمرًا عاديًّا لا يعيبه دين ولا أخلاق. ولكن حتى ذلك الاقتناع بطبيعية السلوك كانت تعلو أصوات تعترض عليه، فعثمان بن مظعون وعبد الله بن جدعان ـ وهما من سادات مكَّة ـ كانا ممن حرّموا على أنفسهم الخمر قبل نزول الإِسْلام، وكان أمثالهما كثيرين في أنحاء مكَّة، وذلك لِمَا لاحظوه من أثر سيئ لها على الوعي، والزنا إن كان مقبولاً في حق الجواري والإماء فإنه لم يكُن كذلك

للحرائر، بدليل أن هند بنت عتبة، حين بايعت الرَّسُول محمد على الإِسْلام مع نساء قريش، وأمرهن الرَّسُول أن لا يزنين، قالت متعجبة: «أوَتزني الحرة يا رسول اللـه؟».

ولو لم تكُن للأخلاق مكانتها العالية في مكَّة ولدى العرب عمومًا ما كان المكيون ليلقِّبوا الرَّسُول محمد بـ«الصَّادِق الأمين»، وإليه يُنسَب القول: «إنما بُعِثتُ لأتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق»، أي أن ثمة مكارم وثمة أخلاقًا وُجِدَت، وإنما جاء الإِسْلام ليتمها.

ـ الختــام:

قد يحسب البعض أن الاعتراف بفضل الإِسْلام يقتضي ذمّ ما قبله بالكامل، وأن الإسلام دين جاء فهدم كل ما قبله وسوّاه بالأرض ثم أقام حَضَارَة من الصفر. هذا اعتقاد خاطئ، فالإِسْلام ـ في كل مجتمع دخله ـ كان يجد أمورًا تستحقُّ الهدم فيهدمها، وأمورًا تحتاج إلى إصلاح فكان يصلحها، وأمورًا أخرى يمكن أن يتبناها ويضمُّها إليه، فكان يفعل ذلك، والدليل أن أغلب المجتمعات التي اعتنقت الإِسْلام لم يتغير في نظمها الكثير، بل إن مكَّة ذاتها أبقى الرَّسُول محمد على أغلب أنظمتها من سقاية ورفادة وحجابة البيت، ولم يغير منها إلا ما كان مخالفًا للدين، أو غير ملائم للطبيعة الجديدة للدولة المركزية الناشئة، وعاصمتها الْمَدِينَة المنورة.

ولو أننا نظرنا إلى سلبيات المجتمع المكي ومجتمع الجزيرة كله قبل الإِسْلام، وحكمنا عليه بناء عليها بأنه مجتمع جاهلي بالكامل، لا في ما يخص الدين فحسب، فإننا نظلمه ونكيل بمكيالين عندما نرفض ضمه إلى المجتمعات المتحضرة، كمصر وبابل واليونان، رغم أنها كانتـ آنذاك ـ مجتمعات وَثَنِيَّة بها ما بها من سلبيات.

إن الإنصاف يقتضي تحليل العَنَاصِر المكونة للمجتمع ـ أي مجتمعـ قبل الحكم عليه، لا تعميم مصطلح يصف جزءًا منه، عليه برُمَّته.

حسب المنظور «الإسلامي» كانت مكة ـ والجزيرة كلها ـ تعيش في جاهلية «دِينِيَّة» فيما قبل الإِسْلام، أما في ما عدا ذلك، فقد كانت حَضَارَة كأي حَضَارَة، فقط مع اختلاف بسيط في مظهرها، فبينما كانت أغلب الحضارات نهرية كمصر والعراق أو بحرية كفينيقيا واليونان واليمن، كانت حَضَارَة مكَّة صحراوية، وهذا أمر لا يُخرِجها من قائمة الحضارات القديمة، لو أردنا إحقاق الحق.

بين البارحة واليوم ـ الجزء الأول

معظم ما نعيشه اليوم ـ نحن العرب ـ إنما هو صورة مطوَّرة مِمَّا عاشه أسلافنا. وأغلب نظم السِّيَاسَة والحكم والأحوال والمشكلات الوطنية والقومية التي تشغل الحيّز الأكثر أهمية من حياتنا ليست بالمستحدثة، إنما هي سُنَن الأولين، جاءتنا بثوبٍ مختلف خارجيًّا فحسب. عن هذا نتحدث، عن بعض ما عاشه أجدادنا من أحوال الدول والسياسات والحكم، وعشناه نحن بشكل ربما يختلف من حيث الشكل ولكنه يتفق من حيث المضمون.

ـ اليوم:

كلمة «الحياد» في عالَمنا الآن تجد لنفسها مساحة في الكتب أكثر مِمَّا تجد في العالم الواقعي، خصوصًا في الصراعات بين الدول الكبرى. فكل منها تَجُرُّ أتباعها ـ طوعًا وكرهًا ـ إلى ساحة الصراع، ثم تعود إلى مقعدها تراقب وتحرك من بعيد، بحيث يتحول ظاهر الأمر إلى صراع بين أتباع تلك القوى العملاقة، بينما باطنه صراع العمالقة في ما بينهم، ولكن بشكل يوفِّر دماء السادة وأموالهم ويحفظ أمنهم، وفي النهاية لا يحقق إلا مصالحهم. هكذا العالم اليوم، وهكذا كان في الأمس البعيد، تحديدًا في الشرق العَرَبِيّ، عندما كان يوجد سيدان لتلك اللعبة: الفُرس، والروم.

ـ الفُرس والروم.. العملاقان:

بعد أن انقسمت الإِمْبِرَاطُورِيَّة الرُّومَانِيَّة إلى قسمين: شرقي (بِيزَنْطَة) وغربي (روما)، وجد قياصرة بِيزَنْطَة أنفسهم قد ورثوا ذلك العداء والتنافس الشرس مع الإِمْبِرَاطُورِيَّة الفَارِسِيَّة. تلك الأخيرة كذلك أدركت أنها أمام دولة فتيَّة قوية لا يُستهان بها، انتقلت إليها العَنَاصِر القوية من روما المحتضرة. كان كل ذي عينين يدرك أن الصراع لا بد سيأتي بأسرع وأشرس الصور الممكنة. ولأن كلاً منهما تعلم أن دخولها في حرب مباشرة مع دولة عملاقة، ملاصقة لها، يعني أنها ستعيش في حالة طوارئ وحرب وتوتر دائمين، فقد كان هذا يعني

تهديد المصالح السلمية لكل منهما ـ من تجارة وزراعة وصناعة ـ بالبوار، وإفراغ مزراعها ومصانعها من الأيدي العاملة بها، في حالة اضطرارها إلى تعبئة الجيش وشحنه بالجند.

الأمر الثاني الذي أقلق كِسْرَى وقيصر كان وجود قوتين عَرَبِيّتين لا يُستهان بهما إلى جوار كل من فارس وبِيزَنْطَة، ففي الشام كان «آل جفنة» يحكمون مملكة الغساسنة، وفي العراق كان «آل لخم» يملكون دولة المناذرة، وكانت الشام هي المدخل الواسع إلى بِيزَنْطَة بينما كان العراق بوابة فارس، فكان على الحاكمين ـ البِيزَنْطِيّ والفَارِسِيّ ـ ألا يستهينا بوجود هاتين الدولتين، وما قد تسببه أطماع أي منهما من مشكلات لجارها العملاق، إذا تطلعت إلى غزو حدوده أو أغرتها قوتها بالطمع في عاصمته ذاتها، وكان هذا أمرًا مألوفًا في ذلك العصر.

أما الهدف الثالث فكان التغلغل في الجزيرة العَرَبِيَّة التي كانت تمثل ثروة بشرية ضخمة يمكن استخدامها وقت الأزمات، كما كانت تتوسط طرق التجارة بين الهند والصين في الشرق، ومصر والحبشة في الغرب، فضلاً عن اليمن في الجنوب، ومن يسيطر على تلك المنطقة يصبح هو السيد الأوحد لشبكة طرق التجارة العالميَّة.

إذن، كان لكل من الفرس والروم ثلاثة مطالب هامَّة: الأول هو توفير الطاقة البشرية والمال والسلاح والجهد المبذول من كل منهما لمحاربة الآخر، والثاني هو شغل المملكتين العَرَبِيّتين، والقَبَائِل العَرَبِيَّة المنضوية تحت كل منهما، عن فكرة غزو حدود فارس أو بِيزَنْطَة، والأخير هو السيطرة على جزيرة العرب. وكان الحل الذهبي هو «التبعية السِّيَاسِيَّة».

ـ غساسنة ومناذرة:

هما في الأصل إخوة، فأصول كل منهما يمنية من مملكة سبأ، وقد جاء انتقال كل منهما، الغساسنة إلى الشام والمناذرة إلى العراق، بعد أن سقطت دولة سبأ بانهيار سَدِّ مأرب، وما نتج عن ذلك من تدمير واسع للمملكة العظيمة السابقة.

ولكن لأن الأطماع السِّيَاسية لا تعرف صلة الدم، فقد كان من الطبيعي أن يصطدم طموح الغساسنة بأهداف المناذرة، وأن تصبح الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى.

من هنا نشأ العداء بين الدولتين، وكانت هذه فرصة كل من فارس وبِيزَنْطَة لتجنيد حليف لها يحارب عنها، فيوفر عليها الدم والعناء وينشغل عن شيطانه الموسوس بغزوها، إضافة إلى قيامه بدور «مخلب القط» لها بين قَبَائِل الجزيرة. من هذا المنطلق تحركت بِيزَنْطَة فتحالفت مع ملوك الغساسنة، وبادرت فارس ففرضت سيطرتها على سادة المناذرة، وتحول الصراع الفَارِسِيّ البِيزَنْطِيّ إلى صراع غساني مناذري، بالذات في عهد الإِمْبِرَاطُور البِيزَنْطِيّ الكبير جستنيان، والملك الفَارِسِيّ الشهير كِسْرَى أنوشروان، فبدأت بين الغساسنة والمناذرة سلسلة من الحروب والمعارك الدامية، لم تبخل فيها كل دولة عظمى على تابعها العَرَبِيّ بالدعم بالسلاح والمال، ليتمكن من توسيع نطاق سيطرته، ما يعني بالتالي اتساع مساحة سيطرة سيده على الأرض وما بها من خيرات، وعلى المناطق الإستراتيجية المطلَّة على حدود خصمه. حرب شديدة الشراسة دارت بين أَبْنَاء الأصل الواحد واللغة الواحدة، الدم فيها دمهم والخيل خيلهم، والنصر لاسم كِسْرَى أو لاسم قيصر!

ـ الدين:

الشعوب الشرقية ـ بطبيعتها ـ يشغل الدين في حياتها وضميرها مساحة ضخمة، وهذا ما أجاد البِيزَنْطِيُّونَ استغلاله، فقد انتشرت العقيدة الـْمَسِيحِيَّة بين الغساسنة تأثرًا بالوجود الكثيف للعقيدة والثقافة الـْمَسِيحِيَّة بالشام، وساعد هذا في ربط مزيد من العلاقات بالروم البِيزَنْطِيِّينَ الذين كانوا يعتبرون أنفسهم رعاة الـْمَسِيحِيَّة في الشرق، وربما في العالم كله. ذلك الخيط التقطه الفُرس، فساندوا انتشار المذهب النسطوري بين المناذرة، وهو المذهب المضاد للمذهب الأرثوذكسي الرسمي للرُّوم، ما يضيف بعدًا دينيًّا إلى الحرب بين الغساسنة والمناذرة.

التأثر الدِّينِيّ لم يتوقف عن الأتباع المباشرين فحسب، بل امتد إلى عمق الجزيرة، فقبيلة تميم اعتنقت المجوسية ـ الدين الرسمي لفارس ـ واعتبرت نفسها بذلك أرقى العرب،

واليمن انتشرت فيه الْمَسِيحِيَّة، بالذات بعد الغزو الحَبَشِيّ المدعوم من بِيزَنْطَة، وكان نَصَارَى الجزيرة يعتبرون أساقفة الشام التابعين لقيصر هم مرجعيتهم الدِّينِيَّة، حتى إن أحد نَصَارَى مكَّة ـ عثمان بن الحويرث ـ زار قيصر في القسطنطينية، وطلب منه أن يولِّيه حاكمًا من قِبَله على مكَّة، وكاد ذلك يتم لولا الرفض العنيف للمكِّيّين أن يصبحوا تحت إمرة غيرهم.

ـ عمق العلاقات:

تلك العلاقات بلغت من العمق أن تداخلت المصالح بشكل يصعب انفصامه، فالمناذرة ارتبطوا بالفُرس إلى حَدِّ أن أي وفد عَرَبِيّ يرغب في الدخول على كِسْرَى كان عليه أولاً أن يمر على ملوك «آل لخم» ليسهِّلوا له ذلك، والأمر مماثل بالنسبة إلى من كان يرغب في التوجه إلى القسطنطينية، فقد كانت بوابته الأولى هي قصر ملك «آل جفنة». كما بلغ الولاء بين الأتباع والسادة أن أصبح السادة يستعينون بأتباعهم حتى في صراعاتهم الداخلية، وصدِّ الأخطار غير ذات العَلاَقة بالصراع الغساسني المناذري. فأحد ملوك فارس ـ بهرام بن يزدجرد الأول ـ استعان بصديقه المنذر بن النعمان، ملك المناذرة، ليستعيد عرشه، فأرسل معه المنذر ثلاثين ألف جنديٍّ عَرَبِيٍّ أعانوه على نيل حقِّه، كما كانت في الحيرة ـ عاصمة المناذرة ـ كتيبة فَارِسِيَّة اسمها «الشهباء» مكونة من ألف مقاتل، تعمل تحت إمرة ملك المناذرة وتضمن ولاءه لكِسْرَى. وهرقل ـ إِمْبِرَاطُور الروم ـ كانت مقدمة جيوشه الموجهة لصد الفتح العَرَبِيّ للشام، مكونة من القَبَائِل العَرَبِيَّة المتنصرة التابعة لملوك غسان. والحرب بينه وبين الْمُسْلِمِينَ ـ التي بدأت في مؤتة ـ إنما كان السبب المباشر لها هو أن أحد الأمراء العرب على الشام، باسم قيصر، قتل رسول الرَّسُول محمد إليه، ما كان يعني إعلان الحرب وفقًا للعرف السائد آنذاك. أي أن الأمر لم يقف عند حَدِّ السيطرة وتوريط الدولتين الصغيرتين في حروب بالنيابة عن السادة، بل بلغ أن أصبحتا تُستَخدَمان لخدمة الأغراض الداخلية لكل من فارس وبِيزَنْطَة، ما يعني مزيدًا من التبعية.

ـ الحقيقة المخزية:

كان ظاهر الأمر أن الغساسنة حلفاء وأصدقاء قيصر، والمناذرة كذلك بالنسبة إلى كِسْرَى. وكان ملوك هذه المملكة وتلك، يتيهون فخرًا بأن السادة «اصطفوهم» ليكونوا أصدقاءهم وحلفاءهم. وكان الشعراء يطلقون ألسنتهم في مدح هؤلاء الملوك المخدوعين، الغافلين عن حقيقة وضعهم المخزي كمجرد أتباع، لا يملكون من السلطان ما يجاوز رغبات السادة الذين كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم مجرَّد شراذم همجية تافهة من رعاة الإبل، الأمر الذي بدا بشدة في المفاوضات التي دارت بين الصحابة المشاركين في فتوحات فارس والشام، وبين كل من قادة الجيوش الفَارِسِيَّة والرومية، فكان حديث هؤلاء القادة الروم والفرس يشي بأن الشعور الغالب عليهم تجاه غزو العرب لهم هو «الاستنكار» أكثر من كونه الغضب. بل ويظهر ذلك أيضًا في أن التفسير الأول الذي ساقه هؤلاء القادة لغزو الْمُسْلِمين لأراضيهم هو أنه «ما أخرجهم سوى الجوع» وما ترتب على ذلك من عروض للجيوش الإِسْلاميَّة بالعودة من حيث أتت، مقابل إعطاء كل جندي دينارين وكسوة وبعض الطعام، ما يعني أن روح التعامل مع العرب آنذاك كانت روح الاحتقار لا الصداقة والندِّيَّة، وهذا ما ينعكس بطبيعة الحال على علاقات الفرس بالمناذرة والروم بالغساسنة، تلك الحقيقة التي تعامى عنها ملوك هذا وذاك.

ـ النهاية:

ولأن السِّيَاسَة لا تعرف الأوضاع الثابتة، فقد كان من الطبيعي أن ينهار ذلك التحالف وإن اختلفت الأسباب. فبالنسبة إلى المناذرة، جاء ذلك بشكل باكر عن إخْوَانهم الغساسنة، فقد تزايدت قوة المناذرة، وبدأت تظهر في أسرتهم الحاكمة قوة بلغت ذروتها في عهد النعمان بن المنذر، ما أثار قلق السلطة الحاكمة في فارس، فبدأت تخشى أن تغري النعمان قوته فيخرج عن طاعة سادته الفُرس، فقرر كِسْرَى اختبار طاعته بأن طلب من النعمان أن يرسل إليه نساء بيته ليتزوجن رجالاً من فارس، ولأن هذا المطلب عند العرب شديد المهانة، فقد رفض النعمان، وهنا علم كِسْرَى أن عليه إزاحة هذا الملك العَرَبِيّ ـ وأسرته كلها ـ من الطريق، واستبدال ملوك جدد يجيدون الطاعة بهم. فأرسل كِسْرَى في استدعاء النعمان

الذي أدرك أنه مقتول إذا ذهب إلى فارس، لكنه اضطر إلى الذهاب حتى لا يعرض مملكته لمداهمة جيوش الفُرس لها، وهناك قتله كِسْرَى وأنهى حكم المناذرة تمامًا.

أما الغساسنة فقد انتهى تحالفهم مع الروم بانتهاء الوجود البِيزَنْطِيّ في الشام على يد الجيوش الإِسْلاميَّة، بقيادة خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وذوبان مناطق نفوذ الغساسنة في بوتقة الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الجديدة، وتحولها إلى مجرَّد ولايات عَرَبِيَّة إِسْلاميَّة خاضعة للعاصمة في الْمَدِينَة.

كما رأينا، فإن تلك التبعية المهينة التي استنزفت دم وطاقة مملكتَي الغساسنة والمناذرة، وعطلت كلا منهما عن أن تكون لها طموحاتها وحضارتها المستقلة، لم تنتهِ إلا بالاتحاد التدريجي للعرب تحت راية الإِسْلام الذي كان قد انتشر في الحجاز ومحطيه آنذاك، فأصبح للعرب هدف موحد واتجاه واحد وخطوات ثابتة منظمة، خرجت بهم من دائرة التبعية لقيصر وكِسْرَى، تلك التبعية التي وضعت هؤلاء العرب في وضع «الزمن الثابت» وجعلتهم يتحركون في نطاق ضيق كقطع الشطرنج. تلك الحقيقة التي عبر عنها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بقوله للقائد الفَارِسِيّ الهرمزان، حين أسره الْمُسْلِمُون: «إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا».

هكذا.. يبدو لنا أن التبعية السِّيَاسِيَّة ليست أمرًا مستحدثًا ولا هي واقعًا جديدًا علينا.. بل هي أقدم مما يبدو.. وهي الآن كما كانت قديمًا، من حيث المضمون، وإن اختلف الشكل.

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. فجر الإِسْلام: أحمد أمين.
3. تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.
4. تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.

5. جزيرة العرب قبل الإِسْلام: برهان الدين دلّو.
6. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
7. محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
8. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
9. أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلامي: د/ توفيق أبو خليل.
10. تاريخ الخلفاء الراشدين: د/ محمد سهيل طقّوش.

بين البارحة واليوم ـ الجزء الثاني

السلام الرُّومَانِيّ

«السلام الرُّومَانِيّ» مصطلح يعني فرض السلام بالشكل الحصري الذي تتخيله الدَّوْلَة العظمى، وبالصورة التي تخدم مصالحها، بصرف النظر عن كون هذا السلام عادلاً أم لا. هو نفس نوع السلام الذي تسعى أَمْرِيكَا لفرضه اليوم على العالَم وَفْق رؤيتها وخدمةً لتطلعاتها. وقد نُسِبَ إلى الرُّومَان لأنهم أول من اخترعه وطبَّقه، وما الذي نراه منه الآن إلا التطبيق العصريُّ للصناعة القديمة.

ـ الشرق القديم:

بعد أن انقضى عصر الإسكندر الأكبر وخلفائه العِظام الذين ورثوا ما فتحه من بلاد الشام ومصر، وغيرها من أراضي الشرق، بدأت قوة وليدة في التطلع لتَسَيُّد العالم القديم، قوة نشأت في شبه الجزيرة الإيطالية واتخذت روما عاصمة لها. ذلك التطلع لم يكُن فقط عن رغبة طبيعية لدى كل جَمَاعَة بشرية في فرض سيادتها على ما حولها، وإنما كان أيضًا مدفوعًا بفقر أراضي جنوب أُورُوبًا من الثروات، قياسًا على بلاد المشرق الثري حيث وُجِدَت أربع ممالك قوية تقاسمت الأراضي والخيرات في تلك المنطقة: البطالمة ـ أحفاد بطليموس أحد قادة الإسكندر ـ حكموا مصر، والسلوقيُّون ـ خلفاء قائد آخر هو سلوقس ـ أقاموا دولتهم في سوريا، وبَنُو إِسْرَائِيل كانت لهم مملكة يهودا في فلسْطِين، بينما أقام العرب مملكة عظيمة في قلب جبال الأردن هي مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء (Petra). تلك الدول الأربع كانت في تلك الفترة تعيش صراعًا عنيفًا، فالسلوقيُّون والبطالمة دارت بينهم أعتى الحروب في إطار منافستهم على لبنان وفلسْطِين، ودولة يهودا كانت ممزَّقة في وسط المعمعة بين هؤلاء وهؤلاء، غير صراعاتها مع الأنباط الذين كانوا يتحينون الفرص للسيطرة على فلسْطِين المتاخمة لأراضيهم. هذا فضلاً عن الصراعات الداخلية لكل

دولة، ففي مصر كان الصدام قد بلغ أعنف درجاته بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر الذي كان طفلاً، يوجِّهه رجال البلاط المتطلعون إلى اتخاذه ستارًا لسيطرتهم على الحكم. وفي سوريا السلوقية كان كل من هبَّ ودبَّ يطالب بالعرش لنفسه، ويسعى لقلب النظام لصالحه. أمَّا مملكة يهودا فقد اندلع فيها ما يشبه الحرب الأهلية بين حزبَي الْيَهُود السلفيين المتشددين والْيَهُود العلمانيين المنادين بتقليد نمط حياة اليونان، وتهميش الدين. أما دولة الأنباط فكانت أكثرها استقرارًا، وربما كان هذا سببًا في صمودها لفترة أطول في وجه العواصف التي أتت فيما بعد. كان الشرق كأنما ينادي الغزاة أن «تعالوا ها أنا ذا مفتوح الأبواب»، والرُّومَان التقطوا الرسالة وبدأوا في وضع وتنفيذ خطوات خطتهم البارعة لفرض «سلامهم» على المنطقة وفق رؤية أباطرتهم ونواب مجلس السناتو (البرلمان الرُّومَانِيّ) وقادة الجيوش المتعطشة إلى ثروات الشرق، تلك الخطة التي بدأ تنفيذها خلال القرن قبل الأخير قبل الميلاد، واكتمل في بدايات القرن الثاني الميلادي.

ـ دعاة «السلام»:

لم تكُن الدول الأربع سالفة الذكر قد بلغت بعدُ درجة الضعف التي تسمح للجيوش الرُّومَانِيَّة باجتياحها بسهولة من دون خطط ملتوية، كما أن ثمة خشية دائمة، سيطرت على الساسة الرُّومَان، من أن يؤدي هجوم روماني عسكري صريح على المنطقة إلى أن يُلقي قادة الصراع في دول الشرق خلافاتهم جانبًا، ويتحالفوا ضدَّ الخطر المشترك. هذا غير أن مجلس السناتو كان شديد التشدد في ما يتعلق بإرسال الجنود الرُّومَان إلى بلاد بعيدة، من دون ضمانات قوية للنصر. لم يكُن من سبيل إذن سوى أن يأتي الرُّومَان إلى الشرق كدعاة سلام بحُجَّة رغبتهم في مساعدة شعوب الشرق المتحارب على حل مشكلاتهم، ليسود الاستقرار تلك المنطقة التي تُعتبر معبرًا هامًّا للتجارة العالميَّة. وهكذا بدأ العمل على التدخُّل في شؤون دول الشرق الأربع تمهيدًا لإسقاطها وتحويلها إلى ولايات رومانية، ولم تكُن تلك عملية سهلة أو هيِّنة، بل تطلبت دراسة مُسبقة للوضع في المنطقة، ونقاط الضعف التي يمكن أن يتسلل منها التدخل الرُّومَانِيّ ويتضخم، بحيث يصبح الرُّومَان هم الممسكون بمفاتيح لعبة الحرب والسلام، سواء فيما بين الدول المتحاربة أو فيما بين الأحزاب

المتناحرة داخل كل دولة على حِدة. كانت عملية شديدة الصعوبة والتعقيد وتطلبت ـ بطبيعة الحال ـ تقسيم الغزو السِّيَاسِيّ الرُّومَانِيّ للمنطقة إلى محاور عدة.

١ ـ السلوقيُّون:

سرعان ما ظهر المبعوثون الرُّومَان في أنطاكية (عاصمة السلوقيِّين) حيث عرضوا وساطتهم بين الدولتين ـ السلوقية والبَطْلَمِيَّة ـ لحل النزاع بينهما على السيادة على جنوب سوريا وإقليم فينيقيا (وكان هذا بناءً على طلب البطالمة الذين قدموها فرصة من ذهب للرومان). كان عرض الرُّومَان يخفي وراءه أمرين: الأول هو رغبتهم في كسر التحالف بين السلوقيِّين ومقدونيا التي كانت تخوض حربًا عاتية ضِدّ روما في أُورُوبَّا، والآخر كان رغبتهم في الإمساك بمفاتيح الصراع البَطْلَمِيّ السلوقي، بحيث يمكنهم إشعال الحرب بين الجانبين في الوقت المناسب، لإضعافهما وقتل أي فرصة للاتحاد بينهما ضِدّ غزو روماني مستقبلي. ومن ناحية أخرى استغلَّت روما الصراع الداخلي على العرش السلوقي وقدمت الدعم لكل مُطالِب بالعرش على حِدة، وفقما ترى في سياسته المستقبلية من موافقة لها، حتى بلغ الأمر أن استغلّ الرُّومَان حالة الفراغ السِّيَاسِيّ التي داهمت الدَّوْلَة السلوقية بعد موت أحد ملوكها، وعدم تركه أي ورثة للعرش، وأبرزوا رجلاً مجهول الأصل ادعَوا أنه كان ابنًا مختفيًا للملك الراحل وطالبوا له بالحكم، بل وأصبح من المألوف أن يعيش بعض أَبْنَاء الأسرة المالكة السلوقية في روما، حيث يتشربون منذ الصغر تعاليم الولاء للنسر الرُّومَانِيّ، وعندما يكبرون يتم إرسالهم إلى أنطاكية كمطالبين للعرش، ما أسهم في تحطيم استقلالية السِّيَاسَة السلوقية تمامًا، وتحويل الدَّوْلَة إلى مجرَّد تابع للرومان ينفِّذ تعاليمها التي كان أغلبها منصبًا على محاربة البطالمة، بغرض إضعاف الطرفين، السلوقي والبَطْلَمِيّ. وعندما شعرت روما أن الغرض من الاستقلال الاسمي للسلوقيِّين قد انتهى، وأن مهمتهم في الاصطدام بأَبْنَاء عمومتهم البطالمة حتى يَضعُفوا قد انتهت، وضعوا اللبِنة الأخيرة في بنيانهم، ودخل القائد الرُّومَانِيّ بومبي سوريا بجيشه، وأسقط الحكم السلوقي معلنًا سوريا ولاية رومانية كاملة.

٢ ـ البطالمة:

في الوقت الذي كانت روما تعيّن فيه أول والٍ من قِبَلها في سوريا، كانت مصر تعيش حالة من فوضى الحكم الذي كان شركة بين بطليموس الثالث عشر، الطفل عديم الخبرة، وأخته كليوباترا السابعة، المرأة القوية ذات التطلعات البعيدة. فبين مؤامرات رجال البلاط للتخلُّص من كليوباترا ليخلو لهم الجو وينفردوا بالحكم من وراء الطفل الغِرِّ، وسعي كليوباترا نفسها للتآمر على أخيها والتخلص منه لتنطلق بطموحاتها من دون قيود، كان الاستقرار معدومًا في الإسكندرية، عاصمة مصر البَطْلَمِيَّة التي كان الرُّومَان ينظرون إليها (مصر) باعتبارها مخزنًا ضخمًا للغلال يسيل له اللعاب. حالة التوتر الداخلي تلك كانت ذريعة روما لتتدخل في شؤون مصر، بِحُجَّة حماية التجارة العالميَّة والمصدر الرئيسي للغذاء لشبه الجزيرة الإيطالية. التدخل الرُّومَانِيّ في مصر جاء أكثر عنفًا وسرعة مِمَّا كان عليه في سوريا، فدولة البطالمة كانت قد وهنت بسبب صراعها مع جارتها السلوقية المنهارة، وأيضًا بسبب الصراع الداخلي سالف الذكر. لم تكُن الضربة القاضية للحكم البَطْلَمِيّ لتتأخر لولا الحرب الأهلية الرُّومَانِيَّة التي بدأت بين بومبي وقيصر، وأكملها بعد موتهما ماركوس أنطونيوس ـ الذي تحالف مع كليوباترا السابعة- وأوكتافيان الذي فرض سيطرته على مجلس السناتو وجعله يفوضه في محاربة أنطونيوس، على اعتبار هذا الأخير مارقًا خارجًا على الدَّوْلَة الرُّومَانِيَّة. وفي معركة أكتيوم البحرية، قام جيش أوكتافيان بسحق عدوه أنطونيوس وحليفته البَطْلَمِيَّة، مُنْهِيًا بذلك ـ وبضربة واحدة- كلاًّ من الحرب الأهلية، والدَّوْلَة البَطْلَمِيَّة، ومحولاً مصر إلى ولاية رومانية تابعة مباشرة للإمْبِرَاطُور الرُّومَانِيّ، نظرًا إلى أهميتها كمصدر للقمح والغلال للعالم القديم كله. المحور البَطْلَمِيّ في اللعبة الرُّومَانِيَّة انتهى أمره متأخرًا عن سلفه السلوقي، لكنه كان الأكثر سهولة، نظرًا إلى تردِّي الأوضاع إلى حدِّ تَحَوُّل الدَّوْلَة البَطْلَمِيَّة ـ آنذاك ـ إلى دولة رخوة هشَّة، تنتظر أول هبَّة ريح لتسقط.

٣ ـ مملكة يهودا:

عندما بدأ التدخل الرُّومَانِيّ في شؤون المشرق، كانت ذرائعه تتدرج من حيث القوة والتوغل في الشأن الشرقي، فمن حجة هلامية «حماية السلام في منطقة تعبر منها التجارة العالميَّة»، كما فعلوا مع السلوقيِّين، مرورًا بِحُجَّة لها وجاهتها «حماية مصدر الحبوب الأول للعالم»، كما حدث في مصر، إلى حجة أكثر قوة هي «حماية منطقة متاخمة لحدود الولايات الرُّومَانِيَّة الشرقية» وهذا ما فعلوه مع مملكة يهودا. فتلك المنطقة ـ فلسْطِين ـ التي قامت عليها المملكة المذكورة، كانت ساحة دائمة للصراع بين السلوقيِّين والبطالمة، بصفتها معبرًا حيويًا للجيوش بين إفريقيا وآسيا، ما يعني أن السيطرة عليها تعني السيطرة على محور اتصال الشام بوادي النيل.

ولطبيعة تلك البقعة من الأرض، كان الوجود الرُّومَانِيّ فيها قديمًا، قبل حتى الوجود في مصر، ولكنه جعل من مملكة يهودا دولة معترَفًا بها، لها صفة شبه مستقلة، تتبع عسكريًّا حاكم ولاية سوريا، بينما يديرها سياسيًّا ملك من أهلها، كان ـ آنذاك ـ الملك هيرود أنتيباس صاحب الميول العلمانية. كان من الممكن لروما أن تسارع بإعلان فلسْطِين ولاية رومانية، أسوة بسوريا ومصر، ولكنها وجدت أن المصلحة في بقاء يهودا دولة ذات استقلال اسمي تتحرك كستار لروما وتنفذ السياسات الرُّومَانِيَّة في الشرق، بالذات تلك المتعلقة بضرب قوة الأنباط تمهيدًا لاجتياحهم بدورهم. وهذا ما كان، فقد أسهم الرُّومَان في خلق حالة من الخوف الْيَهُوديّ الدائم من «اعتداء عَرَبِيّ نبطي متوقع» على أراضي المملكة. ذلك الخوف كان موجودًا من الأساس، لكنهم أسهموا في تكثيفه بحيث يوجهون الجهد العسكري الْيَهُوديّ ضِدّ المملكة العَرَبِيَّة المجاورة، لتحقيق غرضين: الأول إلهاء الْيَهُود بخطر يصرف نظرهم عن مقاومة التدخل الرُّومَانِيّ، والآخر إضعاف المملكة النبطية التي كانت ـ آنذاك ـ شديدة المناعة والقوة. أما من الناحية الداخلية فقد دعم الرُّومَان الملك هيرود ضِدّ خصومه، الْيَهُود السلفيين المتشددين الذين سعوا لمقاومة مخطط هيرود لتطبيق النمط اليوناني الرُّومَانِيّ في الحياة على مملكته. لم يكُن هذا إلا لأن السيطرة على حاكم علماني مبهور بالرُّومَان كنموذج «حضاري» فذ ـ وفق وجهة نظره ـ أسهل من التعامل مع فكر متشدد يرى مقاومة روما واجبًا دينيًّا.

بقيت روما إذن على دعمها لاستقلال هيرود وبقائه على عرشه، حتى قام بمهمته في خدمتها على أكمل وجه بقتل الروح الوطنية الدِّينِيَّة في بلاده، ثم رأت أن الوقت قد حان لإطاحته وضمٍّ فلسْطِين بدورها كولاية رومانية، وهذا ما كان بالفعل، فتم خلع هيرود ونفيه إلى إحدى المستعمرات الأُورُوبِّيَّة حتى مات، بل وبعد تكرر ثورات المتدينين اليهود تم طرد الْيَهُود كلهم من أرض فلسْطِين وتحريم دخولها عليهم.

٤ ـ مملكة الأنباط:

في تلك المرحلة من لعبة السلام، أصبح الرُّومَان أكثر صراحة في تعاملهم، فقاموا بفرض حصار شديد على محيط وتخوم مملكة الأنباط التي كان اقتصادها قائمًا على التجارة الخارجية. ذلك الحصار جعل الأنباط يُضطرُّون إلى دفع الجِزْيَة لروما مقابل فك الحصار عنها، وتلك الأخيرة رحبت بهذا لعلمها أن اقتحام البتراء ـ عاصمة المملكة ـ أمر شبه مستحيل نظرًا إلى وقوعها في منطقة جبلية شديدة الوعورة لا يجيد التعامل معها سوى عَرَبِيّ. تلك الظروف دفعت روما للتفكير في شكل مختلف لفرض «سلامها» في المنطقة، فقد استغلت استماتة الأنباط على فتح أسواق جديدة لتجارتهم بدلاً من تلك التي أغلقها الحصار الرُّومَانِيّ، وأوعزت إلى الملك النبطي أن يسهم معها في حملة لغزو اليمن الثري بالخيرات، والذي كان الرُّومَان يطمعون فيه ويسمونه «بلاد العرب السعيدة» (Felix Arabia). لم يكُن من خيار للأنباط سوى الاستجابة لهذا، وإرسال جنودهم للمشاركة في الحملة التي فشلت نظرًا إلى ضعف احتمال الجنود الرُّومَان لقسوة الصحراء، ولأن الدليل العَرَبِيّ للحملة سعى لتضليلها ربما بدوافع وطنية. أدرك إذن الرُّومَان أن لا طائل من تركهم مملكة مستقلة إلى جوار ممتلكاتهم، ما دامت لا تحقق أهداف الإبقاء عليها، فزادوا من حصارهم وشددوا فيه حتى اضطُرَّ الأنباط إلى التسليم وأصبح الأردن كله من ممتلكات روما.

ـ الخلاصة:

المتأمل لسياسة روما مع الممالك الأربع سالفة الذكر، يدرك سبب تسمية سياسة أَمْرِيكَا ـ حاليًّا ـ بالذات في الشرق الأوسط، بسياسة «السلام الرُّومَانِيّ»، فما يجري هو تعامل مع السلام لا كمبدأ عامٍّ يهدف إلى مصلحة العالم، بل كمبدأ نفعي يخدم من يفرضه، ويستقي شرعيته من قوة واضعه. سلام كل شيء فيه بحساب المكسب والخسارة، من دعم لأنظمة ضِدّ أخرى، وإبقاء على استقلال دولة دون أخرى، وتَدَخُّل بشكل متفاوت في شؤون هذه الدَّوْلَة أو تلك، بحجج تبدأ مطَّاطة هلاميَّة، ثم تتصاعد قوة نبرتها حتى يتحول التدخل إلى حقٍّ مشروع! الأمر الذي يشكك كثيرًا في مصداقية هذا السلام بل ـ وللأسف ـ يجعل مصداقية «السلام» ذاته كمبدأ نبيل، موضعَ نظر.

مصادر المعلومات:

1. موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
2. موسوعة الحروب: هيثم هلال.
3. الْيَهُود في فلسْطِين في العصرين البَطْلَمِيّ والسلوقي: د/ هاني عبد العزيز جوهر.
4. مجتمع الإسكندرية القديم: د/ محمد السيد عبد الغني.
5. مصر في عصر الرُّومَان: د/ الحسين أحمد عبد الله.
6. الشرق الأدنى في العصرين الهلينيستي والرُّومَانِيّ: د/ أبو اليسر فرح.
7. تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د/ عمر صابر عبد الجليل.
8. عولمة القهر: د/ جلال أمين.
9. محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
10. الْيَهُود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون.
11. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
12. تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.
13. جزيرة العرب قبل الإسْلام: برهان الدين دلّو.
14. الجماعات الوظيفية الْيَهُودِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.

15. الأنباط الولاية العَرَبِيَّة الرُّومَانِيَّة: جلين وارين بورسوك.

بين البارحة واليوم ـ الجزء الثالث

سُنَّة وشيعة

إنها نفس القصة القديمة: الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ وتَفَجُرَه في الوقت غير المناسب والظروف غير الملائمة، في وقت كان يجب أن تحل فيه كلمة «نحن» محل كلمتي «أنا» و«أنت»، وفي فترات كان العرب فيها في أقصى حالات احتياجهم إلى وحدة الهدف والمجهود، أمام وحدة الخطر المتجه إليهم بخطوات واثقة ونيات واضحة. عن ذلك الخلاف القديم: السُّنِّيّ الشِّيعِيّ وتكرُّر ظهوره في التوقيت الخطأ.. عن هذا نتحدث.

ـ الحماقات المتبادلة:

المكان: بغداد. الزمان: يوم عاشوراء

جَمَاعَة من الشِّيعَة يخرجون عليهم السواد وشعور نسائهم مكشوفة ووجوه الجميع عليها التراب والرماد.. يضربون صدورهم بأيديهم وهم يبكون الحسين في ذكرى مقتله في العاشر من المحرَّم. يتعمدون المرور أمام مساكن السُّنِّيِّين من أهل بغداد ويعلو صوتهم بالعويل ويصدر عن بعضهم بعض السباب واللعن بحق بعض الصحابة، كأبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية، ما يستفزُّ أهل السُّنَّة فيميلون على الموكب الشِّيعِيّ بالعصي والسيوف والمشاعل، وتحدث معركة بين الجانبين غالبًا ما تنتهي بعدد ضخم من القتلى، وحريق كبير في بيوت الشِّيعَة قد يردُّ عليه هؤلاء بإشعالهم النار في أسواق السُّنَّة! كان هذا مشهدًا مألوفًا في بغداد عاصمة دولة الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ، خَلِيفَة الْمُسْلِمِينَ جميعًا. وكان ما يشجع الشِّيعَة على الخروج في موكبهم هذا وجود وزير أو قائد شيعي ذي مكانة في بلاط الخَلِيفَة، أما إذا كان كل رجال الحكم من السُّنَّة، فلم يكُن شيعة بغداد يجرؤون على مجرَّد التفكير في الخروج في مثل تلك المواكب، أو سب الصحابة بهذا الشكل المستفز. ولأن الحماقة لا تسير في اتجاه واحد، فقد أحدث بعض السنِّيِّين بدعة جديدة هي الاحتفال

بذكرى مقتل مصعب بن الزبير ـ أمير العراق وشقيق عبد الله بن الزبير ـ على يد الأمويين، وأصبحوا يخرجون في مواكب مشابهة لتلك الشِّيعِيَّة في نوع من الاستفزاز للشيعة، ما كان سببًا في وقوع الصدامات الدامية بين الجانبين. كانت تلك المهزلة تحدث، بينما تَرِد الأخبار من شمال الدَّوْلَة الإِسْلاميَّة، كل حين، بوقوع غارة بِيزَنْطِيَّة على مدينة شامية، أو توغُّل لجيش العدو في بلدة على الحدود بين بِيزَنْطَة والدَّوْلَة الإِسْلاميَّة، وما يصاحب هذا وذاك من أعداد ضخمة من القتلى والأسرى الذين سقطوا، بينما إِخْوَانهم العراقيون منشغلون حتى النخاع في صراعهم الداخلي السُّنِّيّ الشِّيعِيّ.

ـ أهل الحل والعقد:

في العصر العَبَّاسِيّ الأول، عندما كان العرب تحت حكم خَلِيفَة واحد قوي ذي سلطة فعلية، كان رعايا الدَّوْلَة يُعامَلون جميعًا باعتبارهم مسؤولية الخَلِيفَة ورجاله، بصرف النظر عن أديان ومذاهب هؤلاء الرعايا وتلك التي يعتنقها رجال الحكم. أما في العصر العَبَّاسِيّ الثاني عندما لم يعُد للخَلِيفَة ـ غالبًا ـ من سلطة منصبه سوى الاسم، فقد أدَّى انهيار السلطة المركزية إلى تكوُّن تكتلات وتحزبات على أيدي القادة والوزراء، وتبع كلاً منهم رجال من الجنود والرعية حسب عرق قائد الحزب أو مذهبه الدِّينِيّ، ولم تكُن التحزبات السُّنِّيَّة والشِّيعِيَّة بعيدة عن تلك اللعبة، فكان معنى أن يكون الوزير سُنِّيًا متشددًا أن يتعرض الشِّيعَة ـ بالذات في بغداد ـ لأعتى أنواع القمع والاعتداء، ونفس الأمر كان يحدث للسُّنة إذا كان وزير الخَلِيفَة شِيعِيًا متعصبًا، فقد كان الشِّيعَة عندئذ «يأخذون راحتهم». وكان كل وزير من هؤلاء يغضُّ البصر عن تصرفات أهل مذهبه في حقِّ أهل المذهب الآخر، ولا يتدخل إلا بشكل صوري بعد أن تكون المذابح قد بلغت مبلغًا يصعب السكوت عنه.

قِلَّة من رجال الحكم استطاعت أن تسمو بنفسها عن تلك الأفعال المخزية، وتركز جهدها على مصلحة الدَّوْلَة، على رأسهم القائد الشِّيعِيّ سيف الدَّوْلَة الحمداني (أحد مؤسسي دولة بني حمدان التي حكمت أجزاء من الشام تحت سلطة الخَلِيفَة). ذلك القائد أخرج نفسه من الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ، وركز جهوده على صدِّ هجمات الروم واستعادة ما احتلُّوا من بلاد

العرب، في الشام وآسيا الصغرى، بعد أن لمسوا ضَعْف الخِلاَفَة وانغماس العرب في صراعاتهم الداخلية، وكذلك القائد السُّنِّيّ محمود بن سبكتكين الذي قضى ٢٤ عامًا من حياته في غزوات متواصلة للهند، حتى أسس مملكة ضخمة، تحت سلطة الخِلاَفَة العَبَّاسِيَّة، وعاش في عهده كبار العلماء والمفكرين، سُنَّة وشِيعَة، في سلام وتسامح ديني، منهم الطبيب السُّنِّيّ ابن سينا والشاعر الشِّيعِيّ الفردوسي. والمُلاحَظ أن أمثال هؤلاء القادة لم يقتحموا الصراع الداخلي على السلطة، بل ركزوا جهدهم على خدمة الدَّوْلَة وتوطيد هيبتها أمام الدول المجاورة، بالذات تلك المتربصة بالعرب.

- عَبَّاسِيَّة وفَاطِمِيَّة:

الصراع الْمَذْهَبِيّ بلغ مرحلة جديدة عندما قامت في المغرب العَرَبِيّ دولة شيعية، لأسرة ادَّعت لنفسها أنها تنحدر من نسل السيدة فاطمة الزهراء، وسَمَّت الدَّوْلَة الجديدة نفسها «الفَاطِمِيَّة». تلك الدَّوْلَة بدأت تتطلع بشراهة إلى مصر، وقامت بالفعل بمحاولتين لغزوها. الوجود الشِّيعِيُّ في شكل دولة وادِّعاء للخِلاَفَة، والانتساب إلى آل البيت، أدَّيا إلى تصاعد التوتر بين الْمَذْهَبين، ونظر الخِلاَفَة العَبَّاسِيَّة، والسُّنَّة بشكل عامٍّ، إلى أي شيعي على أنه موالٍ للفَاطِمِيّين حتى يثبت العكس، خصوصًا مع انتشار دعاة الولاء للفَاطِمِيّين في أرجاء البلاد العَرَبِيَّة. وعندما قام الفَاطِمِيّون بالغزو الثالث لمصر، واقترب جيشهم بقيادة جوهر الصقلي من عاصمة الإِخْشِيدِيّين الذين كانوا يحكمون مصر تحت اسم الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ، آنذاك، وقعت حالة من الفوضى في الشوارع، وحام الشك حول كل مَن يُبدِي مجرَّد حبٍّ زائد لآل البيت، حتى بلغ الأمر أن انطلق الجنود الإِخْشِيدِيّون في شوارع مصر يوقفون الناسَ بشكل عشوائي ويسألونهم عن رأيهم في مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان، فإن قال «مُعَاوِيَة خال علي» - باعتبار أن مُعَاوِيَة خال المؤمنين لأن أخته أم حبيبة إحدى «أمهات المؤمنين» - تركوه، وإن لم يقُلها ضربوه واعتبروه شِيعِيًّا مواليًا للفَاطِمِيّين. وبعد سقوط مصر وانتقال الخِلاَفَة الفَاطِمِيَّة إليها، ازداد الصراع سخونة. فقد تجاور العملاقان، السُّنِّيّ والشِّيعِيّ، وأصبحت المنافسة بينهما على تسيُّد العرب في أوجها. الوجود الفَاطِمِيّ في مصر أخرجها من دورها في الصراع بين العرب وأعدائهم البِيزَنْطِيّينَ، فمصر التي كانت مصدرًا للمؤن

والأموال المستخدم قسم كبير منها في تمويل الحروب العَرَبِيَّة ـ دفاعية وتوسُّعية ـ أصبحت تحت سلطة معادية لباقي القطاع السُّنِّيّ من المنطقة العَرَبِيَّة، ووُجِّهَت مواردها لتمويل أعمال الحرب ضِدّ السلطة العَبَّاسِيَّة، بل وبلغ الأمر أن نشأت في بعض الأوقات تحالفات واتفاقات بين القاهرة والقسطنطينية لتشجيع الروم على ضرب شمال بلاد الخِلاَفَة العَبَّاسِيَّة، حتى ينشغل العَبَّاسِيّون عن جارهم الفَاطِمِيّ اللدود الذي كان لعابه يسيل على بلاد الشام، بل والعراق نفسه. التحالف الفَاطِمِيّ البِيزَنْطِيّ كان خيانة صارخة أدت فيما بعد إلى كوارث ضخمة. ولم يكتفِ الخلفاء الفَاطِمِيّون بذلك بل دعموا الحركات المتمردة على الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ، وبلغوا نجاحًا كبيرًا في ذلك، في بداية الأمر، بأن انحاز إليهم القائد التركي أرسلان البساسيري، شيعي المذهب، الذي كان أحد رجال الدَّوْلَة العَبَّاسِيَّة، واحتل بغداد نفسها وطرد الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ القائم بالله منها، ودعا على منابرها للخَلِيفَة الفَاطِمِيّ. كادت الدَّوْلَة العَبَّاسِيَّة تسقط بسبب غدر البساسيري وخيانته لدولته، لولا تدخُّل قائد تركي آخر هو طغرلبك، وكان سُنِّيًّا مخلصًا للخَلِيفَة، وردع البساسيري وقتله وأنقذ خِلاَفَة العَبَّاسِيِّين. لم يقف الفَاطِمِيّون عند دعم وتمويل تَمَرُّد القادة ذوي الميول الشِّيعِيَّة فحسب، بل دعموا الحركات التخريبية الإرهابية، كحركة الحَشَّاشِين الشِّيعِيَّة المتطرفة في إيران، والتي قامت على اغتيال معارضي مذهبها، وحركة القرامطة في شمال الجزيرة العَرَبِيَّة، والتي اقتحمت الحرم المكي وقتلت الحُجَّاج وانتزعت الحجر الأسود من مكانه لمدة عشرين عامًا. هذا فضلاً عن الغزوات الفَاطِمِيَّة المتكررة لفلسْطِين ولبنان وجنوب الشام، في محاولة لتوسيع نطاق سلطتها من جانب، ولشق طريق مباشر لجيوشها إلى بغداد من جانب آخر. كل تلك الجهود الفَاطِمِيَّة لتدمير العَبَّاسِيِّين، كانت وبالاً على الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإسْلامِيَّة، فهي أولاً منعت المشرق العَرَبِيّ من تقديم يد العون للعرب الأندلسيين الذين كانوا يخوضون أعتى المعارك، للحفاظ على ممتلكاتهم في أُورُوبًّا أمام زحف حملات ملوك إسبانيا وفرنسا والبرتغال، وثانيًا أسهمت في إلهاء العَبَّاسِيِّين عن الخطر الصَّلِيبِيّ الذي كان قد بدأ في الاقتراب من الشرق بوصول أولى حملاته إلى بِيزَنْطَة، استعدادًا لمداهمة الشام كله، وأخيرًا بلغت الخيانة قمتها بمسارعة الفَاطِمِيِّين إلى التحالف مع الفرنجة فور وصولهم إلى المشرق، ضِدّ العَبَّاسِيِّين!

تلك الخيانة الفَاطِمِيَّة قابلتها خيانة أخرى من بعض الحكام السُّنَّة لبعض مدن الشام، فلأن السلطة المركزية في بغداد كانت قد ضعفت، فقد قامت في الشام والعراق وفارس بعض الدول شبه المستقلة، كانت تتبع الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ اسْمِيًّا بينما كانت فعليًّا تمارس استقلالاً كاملاً عن قصر الخِلاَفَة في بغداد. من هذه الدول دولة السَّلاَجِقَة الأتراك في الشام. كان السَّلاَجِقَة ـ في بداية الأمر ـ قوة عَرَبِيَّة كبيرة دافعت عن الدَّوْلَة وأسهمت في ردِّ هيبتها. ولكن بعد زمن توالى عليها حكامٌ أقل كفاءة مِمَّا يجب، وأصابها انقسام شديد وصراع دخلي، دخلت فيه أطراف شيعية متمثلة في بعض الأمراء العرب الشِّيعَة كإمارة بني عقيل. اندلع الصراع بين الأتراك السنة من جانب والعرب الشِّيعَة من جانب آخر، بينما طلائع الصَّلِيبِيّين تقيم إماراتها في آسيا الصغرى والشام، وبلغت المهزلة قمتها بأن عقد أحد كبار القادة السُّنِّيّين، وهو رضوان السُّلْجُوقِيّ، تحالفا مع الأمير الصَّلِيبِيّ تانكريد حاكم أنطاكية، بينما أقام قائد تركي آخر، هو جاولي، حِلْفًا آخر مع بلدوين الثاني حاكم الرها. كل هذه كانت حلقات جديدة في سلسلة الصراع الطائفي الدولي بين السُّنَّة والشِّيعَة، سواء عن تعصُّب مذهبي حقيقي، أو عن تستُّر وراء ذلك التعصُّب، سعيًا إلى مكاسبَ أخرى. أما الخيانة الكبرى، فقد جاءت بعد انهيار الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة بزمن طويل، عندما قام ابن العلقمي وزير الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ المستعصم بالله (وكان الوزير شيعيًا إلا أن المدقق لا يرى علاقة لذلك بتصرفه) ـ بخيانة دولته وتسليم أدق أسرار تحصينات بغداد لهولاكو، خلال حصار هذا الأخير للمدينة، واضعًا فصلاً داميًا في الصراع الْمُرِّ بين الْمَذْهَبين.

ـ المواقف السِّيَاسِيَّة:

الصراع دخل مرحلة تالية بعدما دخل صلاح الدين الأيوبي مصر، مع عمه أسد الدين شريكوه، وأسقطا الحكم الفَاطِمِيّ منها وأعاداها إلى السلطة العَبَّاسِيَّة. فقد سعى صلاح الدين لطرد المذهب الشِّيعِيّ من مصر كلها، بشكل شديد العنف والقسوة اضطَرَّ الشِّيعَة إلى الهرب إلى جبال لبنان وسوريا (حيث يستقرُّ كثير منهم الآن). صلاح الدين أغفل حقيقة أنه حاكم لكل من تحت يده من عرب أيًّا كانت مذاهبهم، وكان الأولى به أن يستميل الشِّيعَة من جديد إلى مبدأ التوحد تحت راية واحدة، كما فعل مع العرب، بحيث يكون قد حقق

وحدة عَرَبِيَّة ومَذْهَبِيَّة. ولكنه لم يفعل فأهدر طاقة كبيرة كان يمكن ضمُّها إلى جيشه المحارب للصليبيين. قد يُلتَمَس له العذر في خوفه من وجود عَنَاصِر مدسوسة تحاول إعادة الحكم الفَاطِمِيّ، ولكنه بالَغَ في الاحتياط فأخذ العاطل والباطل وأثَّر على جزء من البنيان البشري للدولة، وأسهم في نشأة جوِّ العزلة الذي أسهم بدوره ـ عبر التاريخ ـ في خلق حالة من التربُّص بين السُّنَّة والشِّيعَة في الشرق، إضافة إلى أن هجرة هؤلاء الشِّيعَة إلى منطقة إستراتيجية وعرة كجبال لبنان كانت أكثر خطورة من تركهم في مصر أمام عينه، فقد هاجروا إلى منطقة حصينة لا يمكن ملاحقتهم فيها، وهي في نفس الوقت قريبة من أعدائه الصَّلِيبِيّين، بحيث أصبح الشِّيعَة في ظهره إذا التفت لغزو الإمارات الصَّلِيبِيَّة، ما يشكِّل تهديدًا دائمًا له مع جوِّ العداء الذي وُجِدَ بينهم ضدَّه، بعد موقفه منهم في مصر.

من ناحية أخرى، وبعد سنوات طويلة، تعامل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بشكل أكثر ذكاءً مع أكثر طوائف الشِّيعَة تعصُّبًا، وهي طائفة الحَشَّاشِين في الشام، والتي احترفت الاغتيال السِّيَاسِيّ والْمَذْهَبِيّ. بيبرس أراد إخراج تلك الفئة من الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ الطويل، وضمهم إلى صفوف العرب في الحرب ضِدّ الفرنجة الذين كانوا يحتلُّون أجزاء من الشام، فراسل زعماء الحَشَّاشِين وأعطاهم الأمان مقابل أن يضعوا أنفسهم وإمكانياتهم تحت يده، وقام بعد ذلك بتوجيههم إلى القادة الفرنجة، فحقق عدة أهداف: أولاً وقف الصراع السُّنِّيّ الشِّيعِيّ في المنطقة بتوحيد الهدف والعدو، وثانيًا وقف الأعمال الإجرامية للحَشَّاشِين ليسود الأمن، وأخيرًا جعل للفرقة الشِّيعِيَّة المسلحة (الحَشَّاشِين) فائدة للدولة العَرَبِيَّة كلها. وقد أسهم تعامله الذكي هذا، وسَيْر خلفائه في العصر المملوكي الأول على سيرته، في تبريد وإطفاء لهب الصراع الطائفي الطويل بين السُّنَّة والشِّيعَة في الشرق، ذلك الصراع الذي جعل العرب يخسرون الكثير!

ـ واليوم...:

تشابُه التاريخ وتكراره نفسه يؤكد أن مصيرًا كمصير بغداد أو مدن الشام الساقطة في يد الصَّلِيبِيّين، يهددنا إن استمر تصاعد العداء بين السُّنَّة والشِّيعَة بهذا الشكل المخيف، سواء

في إطار البلد الواحد ـ كالعراق ـ أو فيما بين البلدان، خصوصًا أن مبدأ «الْمَذْهَبِيَّة» إن كان مقبولاً قديمًا، فهو غير مقبول الآن في ظل مبدأ «المواطنة». الصَّلِيبِيُّون رحلوا، والمغول كذلك، ولكن الشرق العَرَبِيّ ما زال مطمعًا، والصراع الْمَذْهَبِيّ ما زال موجودًا.. فاثنان لا يفنيان إلا بفناء البشر: الطمع، والغباء!

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
3. بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
4. تاريخ المذاهب الإِسْلاميَّة: محمد أبو زهرة.
5. أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلامي: د/ شوقي أبو خليل.
6. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
7. موسوعة الحروب: هيثم هلال.
8. الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
9. مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
10. ماهية الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.
11. صلاح الدين الأيوبي: د/ محمد مؤنس عوض.
12. عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
13. الاستيطان الصَّلِيبِيّ في فلسْطِين: يوشع براور.
14. العلاقات الإقليمية والحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ كمال بن مارس.
15. تاريخ السَّلاَجِقَة في بلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
16. تاريخ الفَاطِمِيّين: د/ محمد سهيل طقوش.
17. تاريخ الطولونيين والإِخْشِيدِيّين والحمدانيين: د/ محمد سهيل طقوش.
18. تاريخ المماليك: د/ محمد سهيل طقوش.

19. تاريخ الأيوبيين: د/ محمد سهيل طقوش.
20. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
21. الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة: د/ محمد عبد اللـه المقدم.
22. الحشيشية: برنارد لويس.
23. تاريخ أوكسفورد للحروب الصَّلِيبِيَّة: جوناثان رايلي سميث.
24. الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.

بين البارحة واليوم ـ الختام

أصلاب الرجال وأرحام النساء

التطرف الدِّينِيّ هو اسم اللعبة.. وإذا كنا من قبل قد تحدثنا عمَّن استغلوا الدين لتحقيق أغراض شخصيَّة، فاليوم نتحدث عمَّن آمنوا بأنهم جند الله الْمُرْسَلون إلى أرضه الكافرة ليطهِّروها بسيوفهم ويسفكوا دم أهلها.. عمن رفضوا الآخر ووصموه بالخروج عن الإيمان بالله فاستباحوا دمه وعِرْضَه وماله. نموذجان شهدهما التاريخ، واحد إِسْلاميّ عَرَبِيّ والآخر مَسِيحِي أُورُوبِّيّ، الأولون هم الخوارج، والآخرون هم الصَّلِيبِيُّون، اختلفا في الأسلوب والفكر، ولكن اتَّفَقا في المنهج الذي استمرت آثاره في كل فكر متطرف هنا أو هناك، حتى يومنا هذا.

I ـ الخوارج:

ـ البداية:

كانت معركة «صفين» بين الخليفة علي بْن أبي طالب والأمير مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان في أشدها. مُعَاوِيَة يطلب تركه يثأر لابن عمومته عُثْمَان بْن عَفَّان ويرفض الاعتراف بعليٍّ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ حتى يتم ذلك، وعليٌّ يرفض أن يكون تنفيذ القصاص متروكًا للأفراد ويُصِرُّ على أن يبقى ذلك أمرًا بيد الخَلِيفَة وحكومته. وفي قلب المعركة، بعد أن نال الجهد من جند مُعَاوِيَة وكادوا يُهزَمون، قرَّر بمشورة عمرو بن العاص أن ينادي بطلب الهدنة وتحكيم القرآن في ما شجر بين الْمُسْلِمِينَ. الإمام عليٌّ خشي أن تكون تلك خدعة، وكان يعلم يقينًا ـ لشدة تفقُّهه في الدين ـ أنه على حقٍّ، فأراد الاستمرار في القتال، فإذا ببعض جنوده يتمردون عليه ويُصِرُّون على أن يقبل التحكيم، فقبِله على مضض، وإذا بنفس الجنود بعدها مباشرة يعودون فيطلبون منه رفض التحكيم، لكنه يرفض إذ كان قد أعطى

كلمته، ولا يجوز الرجوع في ما عاهد عليه. فخرجوا عليه، ونادوا بتكفيره ومحاربته.. ومن هنا كانت بدايتهم: «الخوارج».

ـ المنهج والعقيدة والأفكار:

هكذا ومن البداية ظهر منهجهم في تكفير كل من خالفهم، ولأنهم كانوا مجرَّد «فئة» من الناس فقد كفَّروا كل الناس واعتزلوهم في مناطق نائية خاصَّة بهم، على اعتبار تلك المناطق «أرض هجرة» وأنهم «مهاجرون مجاهدون» وأن ما سواها من بلاد الْمُسْلِمِينَ «أرض كفر ودار حرب». كانوا يقومون الليل ويصومون النهار وقد تقرحت جباههم من طول السجود. ولكنهم مع ذلك كانوا من أشرِّ الناس، فتكفيرهم من سواهم جعلهم يعيدون النظر في الدين بشكل خاص بهم، فكانوا يفسرون القرآن بظاهر ألفاظه فحسب، من دون البحث في معانيها، وهذا بالطبع مخالف لأبسط قواعد التفسير، وقد كان سببًا في وقوعهم في العديد من الكبوات العَقَدِيَّة، فقد اعتبروا أن مرتكب الذنب كافر حتى لو كانت خطيئته بناءً على خطأ منه في فهم الدين، واعتبروا أن دماء غيرهم من الناس حلال وكذلك أموالهم ونساؤهم، واستحلُّوا قتل الغيلة (الاغتيال) رغم تحريمه شرعًا، ورفضوا ما أجمع عليه الفقهاء في ضرورة أن يكون الخَلِيفَة قُرَشِيًا وفقًا للحديث المنسوب إلى الرسول محمد «الأئمة من قريش»، بل فضَّلوا أن يكون الإمام من غير عشيرة قوية حتى يسهل قتله أو عزله إذا أساء، ومنهم من قال بعدم وجود الإمامة كفرض ما دام الْمُسْلِمُون يستطيعون تحقيق العدل بينهم من دون ولي أمر (!). كانوا ينزلون إلى الكوفة ويقتحمون على الخليفة علي خطبه في المسجد ويقاطعونه بفظاظة صائحين: «ما الحكم إلا لله» فيجيبهم بهدوء: «كلمة حَقٍّ يُراد بها باطل». فهم قد فهموها بأن على المؤمن الحق تنفيذ حكم الله بنفسه أيًّا كان الحكم، بينما كان الإمام يدرك أن بعض أحكام الله يجب أن يحتكر تنفيذها وليُّ الأمر، كالحدود والقصاص، حتى لا يتحول الأمر إلى فوضى.

ـ جرائمهم:

الجريمة الأولى كانت شقَّ صف الْمُسْلِمِينَ بما أحدثوا من تفرُّق بينهم، وخروجهم على الجَمَاعَة في وقت كانت الأمة تحتاج فيه إلى أن تتحد وتتعافى من حربها الأهلية. الجريمة الثانية، كانت كمية التحريفات الرهيبة التي أحدثتها فرقهم على الدين، فقد انقسموا إلى نحو عشرين فرقة كل منها كان لها تفسيرها ونظرتها الخاصَّة للعقيدة والشريعة، وتباينت «إبداعات» كل منها، ونحيل في شأنها إلى كتب مثل «تاريخ المذاهب الإسلامية» للإمام محمد أبو زهرة، أو «الفرق والجماعات الدينية» للدكتور سعيد مراد.

الخلاصة أن شططهم بلغ ببعضهم مرحلة الخروج عن الدين تمامًا، حسب تصنيف خبراء المذاهب والفرق الدِّينِيَّة.

أما جريمتهم الأخرى فتمثلت في حمّامات الدم التي أحدثوها بين الأبرياء، فمنهجهم التكفيري جعل لهم جرأة على مداهمة القرى والبلدات الآمنة وقتل أهلها وسلبهم، وسبي نسائهم، هذا غير قطعهم الطرق على الآمنين وتدميرهم الإحساس العام بالأمان، بالذات في العراق.

ـ الصراع والنهاية:

بدأوا أولى حوادثهم العنيفة بأن قتلوا التابعي عبد الله بن خباب، وبقروا بطن زوجته الحامل فقتلوها وجنينها، وعندما طلب الخليفة علِيّ منهم تسليم القاتل تَحدَّوه قائلين: «كلنا قاتله»، فخرج عليهم بجيش قوي وحاربهم في منطقة «النهروان» من العراق وأحدث فيهم مقتلة عظيمة، وعندما هنَّأه بعض الناس بالنصر قال لهم: «لا، بل هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء»، إذ أدرك ـ ببعد نظره ـ أن ما أحدثه الخوارج من تَطرُّف إنما هو باقٍ إلى نهاية الزمان. وفي يوم، بينما كان علي يصلِّي الفجر بالناس، خرج عليه أحد الخوارج وضربه بالسيف مغتالاً إياه، ومنذ ذلك الوقت بدأت سلسلة العنف بينهم وبين الدَّوْلَة، فالأمويون ـ الذين حكموا الْمُسْلِمِينَ بعد اغتيال علي واعتزال ابنه الحسن الخِلاَفَة ـ كانوا قادرين بحقٍّ على مواجهة حركات التَّمَرُّد بحزم وقسوة، وكانت لديهم نخبة من القادة الدهاة البارعين، أمثال الحَجَّاج بن يُوسُف والمهلَّب بن أبي صفرة. الأول كانت فيه قسوة

أكثر مِمَّا كان فيه من الدهاء، فكان يومًا ينتصر على الخوارج ويومًا ينتصرون عليه، ولم يستطِع أن يضع حدًّا لهم، فقد كانوا ـ على باطلهم ـ ذوي قوة وشجاعة واستقتال، بينما كان المهلَّب داهية بارعًا، فكان يدس لهم قبل معاركه معهم من يثير فيهم الجدل الدِّينِيّ ويحميه ـ وكانوا يهوون الجدل والاختلاف ـ حتى يبلغ منهم أن ينقلب بعضهم على بعض، فيدخلوا المعركة تحسبهم جميعًا وهم شَتَّى، فتكون الهزيمة من نصيبهم، وربما نَمَت الخلافات بينهم حتى يتحاربوا فيما بينهم. استمر الأمر على هذا المنوال طوال عهد الأمويين حتى تضعضعت قوة الخوارج، وسقطوا قبل سقوط الدَّوْلَة الأموية بقليل وانهارت قوتهم العسكرية، ولم يبقَ منهم حتى الآن سوى بعض مذاهبهم في بعض مناطق عمان واليمن وليبيا وصحراء مصر الغربية.

II ـ الصَّلِيبِيُّون:

ـ البداية:

من المتفَق عليه بين أغلب المؤرخين أن الحملات الصَّلِيبِيَّة على الشرق كانت كذبة مفضوحة، تَتستَّر وراء الدين لإخفاء الأغراض الدنيوية. ربما لهذا لم يستخدم المؤرخون الْمُسْلِمُون القدامى مصطلح «الصَّلِيبِيّين» لوصف الغزاة. ولكنَّ ثمة جانبًا آخر لا ينكره أحد، هو وجود نسبة لا بأس بها ممن خرجوا مع تلك الحملة وهم مؤمنون بأنهم بالفعل يحاربون من أجل نصرة دين المسيح، ورفع كلمة الرب. كان أغلبهم من البسطاء وصغار رجال الدين الْمَسِيحِي، ولكن بساطة عقولهم انعكست على وحشيَّة أفعالهم التي سجلها المؤرخون الأُورُوبِّيُّون أنفسهم!

ـ أسباب نشأة الفكر الصَّلِيبِيّ المتطرف:

كان الجهل يمثل عاملاً كبيرًا في نشأة هذا الفكر، فضعْف ـ أو انعدام ـ الاتصال العقلي بين عامَّة الشعب والثقافة العَرَبِيَّة الإِسْلامِيَّة، سهَّل على دعاة الحملات أن يقنعوا هؤلاء الناس بأن الْمُسْلِمِينَ كائنات وحشيَّة تنتهك قبر المسيح وتقتل الحُجَّاج النَّصَارَى، وكانت قد

انتشرت آنذاك في أُوروبًا فكرة اقتراب القيامة ودنوٍّ يوم الدينونة؛ وضرورة سرعة التطهر من الآثام، ما دفع الكثيرين للرغبة في إنهاء حياتهم الدنيا بالْجِهَاد في الأرض الْمُقَدَّسَة، والاستشهاد على عتبات «أورشليم» في أثناء نشر دين المسيح بين «الكُفَّار الملاحدة» كما كان يوصف الْمُسْلِمُون والعرب.

الحماسة الدِّينِيَّة دفعت الآلاف إلى الخروج ـ برًّا وبحرًا ـ إلى الحملات متطوعين، وقد خاطوا على ملابسهم صلبانًا قماشية (ومن هنا جاء وصف الحملات بالصَّلِيبِيَّة). تلك الهَبَّة الدِّينِيَّة كانت مدعومة بما زرعته الكَنِيسَة الكَاثُولِيكِيَّة ـ آنذاك ـ في عقول العوامِّ، من احتكار البابا في روما لأبواب الرحمة وأبواب الجحيم، فكانوا مؤهَّلين لطاعته والامتثال له تمامًا. ورغم أن البابا أوربان الثاني ـ أول من دعا للخروج الأُورُوبِّيّ إلى الشرق ـ لم يكُن في بداية الأمر راغبًا في خروج عامة الشعب للقتال، فإنه ورجال الكَنِيسَة رأوا ـ بعد ذلك ـ أن في هذا فائدة كبيرة من حيث توفير أعداد هائلة من المقاتلين المستعدين للقتال من دون مقابل سوى إرضاء الرب. أمر آخر أسهم في إذكاء الروح المتعصبة ضِدّ الْمُسْلِمِينَ، هو الحروب المستمرة بين الإسبان والبرتغاليين والفرنسيين من جانب، والعرب الأندلسيين من جانب آخر، وقد كان هؤلاء الأخيرون هم الأكثر تغلبًا ـ آنذاك ـ على أعدائهم عسكريًّا وسياسيًّا، فكانت في أُورُوبًّا تَيَّارَات كاملة من المتأثرين بهذا الصراع، والراغبين في الانتقام من الْمُسْلِمِينَ الذين هزموا الأُورُوبِّيِّين على أرضهم.

ـ الفظائع:

الشحنة الدِّينِيَّة العنيفة التي تَلَقَّاها المقاتلون من العامة، من خطب البابا ورجال الدين التي سمعوا فيها أشنع الاتهامات لِلْمُسْلِمِينَ بتدنيس المقدسات الْمَسِيحِيَّة، وإذلال الْمَسِيحِيِّينَ، إضافة إلى الخوف المزروع في قلوبهم (المقاتلين) من إغضاب الرب لو تقاعسوا عن القتال، فضلاً عن رغبة المعدمين والبائسين منهم في الفوز بنعيم السماء بعد أن يئسوا من نعيم الأرض، والحماس الدِّينِيّ المتعصب الأعمى لصغار رجال الدين الذين كانوا قد تَشرَّبوا من قياداتهم الدِّينِيَّة كمية كبيرة من البغض لكل ما هو عَرَبِيّ إِسْلامي، كل تلك العوامل، دفعت

كل هؤلاء لارتكاب مذابح بشعة بحق سكان المدن التي دخلتها القوات الأُورُوبِّيَّة، فكانوا يقتلون الجميع من دون تمييز، ويجمعون المدنيين في المساجد ويحرقونها عليهم، ويبقرون بطون الحوامل ويقتلون الأجنة أمام الأمهات قبل أن يذبحوهن، بينما كانوا (المجرمون) يسبِّحون ويرتِّلون من المزامير والكتاب المقدس، في مزيج جنوني بين صرخات الضحايا وابتهالات القتلة.

قِلَّة من أصحاب الضمائر الحيَّة والعقول الواعية أدركوا خطأ الادِّعاءات الكَنَسِيَّة الكَاثُولِيكِيَّة في حق الْمُسْلِمِينَ، عندما احتكُّوا بهم عن قرب خلال الحملات، سواء كأسرى في يد العرب أو كتُجَّار في أوقات الهدنة، فكان من الطبيعي أن تكون الحملات الأُورُوبِّيَّة إلى الشرق وسيلة لجعل العامَّة يدركون في أي خدعة وقعوا، عندما صدَّقوا الافتراءات في حق الْمُسْلِمِينَ.

III ـ واليوم...:

كما قالها الخليفة علي بن أبي طالب «هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء». فاليوم، نجد من الْمُسْلِمِينَ من يستبيح دم غيره ويستسهل تكفيره ويعتبر ماله وعِرْضه غنيمة، فقط لأنهما يختلفان في تناول الدين.. الخوارج انتهوا، لكن منهجهم التكفيري باقٍ كما هو، وأسلوبهم في تكوين الفرق والميليشيات العسكرية التي تنتمي إلى هذا الفكر المتطرف أو ذاك، كما هو، وانفصالهم عن مجتمعاتهم وتنصيبهم أمراء لهم يقودون حملاتهم التكفيرية و«غزواتهم» في حقِّ معارضيهم، يبقى كما هو من دون تغيير إلا في أسماء الجماعات وشعاراتها... سواء كانت «الْقَاعِدَة»، أو «التكفير والهجرة»، أو «الناجون من النار»... كلها أسماء لشيء واحد بغيض يحدث عندما يسيء الإنسان فهم وظيفة عقله!

والصَّلِيبِيُّون رحلوا، لكن فكرهم المتطرف ما زال باقيًا في بعض التوجهات اليمينية المتطرفة..

نعم، لم ينتهِ التطرف الدِّينِيّ، وكيف ينتهي؟ ألم يقُل أينشتاين إن كل شيء بلا حدود إلا الغباء البشري..

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
3. النظام السِّيَاسِيّ للدولة الإِسْلاميَّة: د/ محمد سليم العوا.
4. الأحكام السلطانية: أبو الحسن الماوردي.
5. الجريمة: محمد أبو زهرة.
6. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
7. تاريخ المذاهب الإِسْلاميَّة: محمد أبو زهرة.
8. الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
9. الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.
10. الله ليس كذلك: د/ زيجريد هونكه.
11. الإِسْلام كبديل: د/ مراد هوفمان.
12. الْقَاعِدَة وأخواتها: كميل الطويل.
13. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
14. حَضَارَة أُورُوبَّا العصور الوسطى: موريس كين.
15. ماهية الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.
16. تاريخ أوكسفورد للحروب الصَّلِيبِيَّة: جوناثان رايلي سميث.
17. الاستيطان الصَّلِيبِيّ في فلسْطِين: يوشع براور.
18. الْمُسْلِمُون وأُورُوبَّا: د/ قاسم عبده قاسم.
19. العصور الوسطى الباكرة: نورمان كانتور.
20. عالم الصَّلِيبِيّين: يوشع براور.

21. عالم الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
22. عصر الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
23. أصول الفقه الإِسْلامي: محمد أبو زهرة.

دماء على عتبات الإله ـ الجزء الأول

الآشوريون.. البِيزَنْطِيُّونَ.. الصَّلِيبِيُّون.. المتطرفون من كل دين.. كل هؤلاء وغيرهم فعلوا الأفاعيل فسفكوا أنهارًا من الدماء ودبَّروا أعتى أنواع المؤامرات بِحُجَّة «إرضاء الإله».. أقدمِ الحُجَجِ وأقواها أثرًا وأكثرها نفوذًا على الناس. ولأننا نؤمن أن من ثار حقًّا لنصرة إلهه ليس كمن اتخذ إلهه حُجَّة ليحقق مكاسبَ شخصيَّة.. فإننا نتحدث عن هذا النوع الثاني من البشر.. عن الذين اتخذوا من «نُصرَة الإله» حُجة ساترة لأسباب أخرى.. ليفعلوا ما شاؤوا من دون حساب.

مُخطئ من يحسب أن هذا النوع من الحجج حديث النشأة. فالحقيقة أنه قديم قِدَم الإنسان الذي إن شاء وجد لنفسه عشرات ـ بل مئاتـ المبرِّرات ليرتكب أعتى أنواع الشرِّ. ودعونا لا ننسَ أن قابيل قتل هابيل وهو يدَّعي عدالة قضيته!

ولا يوجد تاريخ محدَّد لتلك الفكرة «القتل والحرب باسم الإله/الآلهة» ولكن المؤكد أنها نشأت في الشرق، حيث احتلَّ الدين أعلى مكانة في نفس الإنسان... والأمثلة موجودة.

آشور العَطوف (!):

ما دامت ليست لدينا بداية محددة فلنبدأ بأقوى الأمثلة: دولة آشور. تلك الدَّوْلَة التي نشأت أولاً حول مدينتَي أربيل ونينوَى ـ في العراق القديم ـ ثم تحولت إلى إمْبِرَاطُورِيَّة واسعة سيطرت على سوريا والعراق ومصر. تلك الدَّوْلَة حملت اسم معبودها «آشور» إله الحرب الذي كانت عبادته تناسب تمامًا الشعب الآشوري العنيف الذي لم يكُن لديه هَمٌّ سوى القتال والتَّوَسُّع، فكانت كل الأعمال مرتبطة بالحرب والقتال بشكل أو بآخر. فمن يتعلم الهندسة إنما يفعل ذلك ليبني حصون دولته ويجيد تخريب حصون أعدائها، ومن يمارس الطب يتخصص في معالجة جرحى المعارك، والحدادون لا هَم لهم سوى صنع الخوذات والدروع والأسلحة للجيش الذي كان الأقوى في عصره، وبلغ تقدُّمه حَدَّ أن ضمَّ سربًا من الطيور

الجارحة المدرَّبة على مهاجمة من يُجْرَح من الأعداء في أثناء المعركة وتمزيق جروحه. ملوك آشور أقنعوا شعبهم بأن كل هذا يهدف إلى إرضاء الإله «آشور العطوف» الذي كان يأمرهم بدوام الغزو باسمه.. فكانت الجيوش الآشورية تخرج لقتال بَنِي إِسْرَائِيل وقَبَائِل بني إِسْمَاعِيل ودولتَي مصر وبابل. وكما أن في بعض الأديان ـ كالإِسْلام ـ مواسم لها عبادات معيَّنة، كالحَجِّ والصيام، فقد كان للآشورِيِّين موسم للخروج لقتال الآخرين هو شهر تموز (يوليو) الذي يأمرهم فيه الإله بالغزو وقتل الأعداء وأسر تماثيل آلهتهم. وبعد المعارك كانوا يعودون إلى العاصمة نينوَى بأفواج الأسرى حيث يقام الحفل الدموي لإرضاء الإله بمشاهد تعذيب وقتل الأسرى بأبشع الطرق الممكنة.. فكانوا يسلخون بعضهم أحياءً ويغطون جدران العاصمة بجلودهم، تلك الجدران التي كانوا يدفنون فيها البعض الآخر أحياء ويكملون بناء الجدار على أجسادهم، والبقية الباقية من هؤلاء المساكين كانت تلقى حتفها على الخوازيق أو بالإلقاء أحياء في النيران، من دون تمييز بين مقاتل أو مدني، كبير أو صغير... كل هذا والشعب الآشوري يشاهد ويُسَبِّح بحمد آشور، ويهتف للملك ـ ابن آشور المقدس ـ الذي لم يفعل ما فعل إلا إرضاءً للرب! وحقيقة الأمر أن كل تلك المذابح والمجازر إنما كانت تتم بشكل مقصودٍ به شنُّ حرب نفسيَّة على الشعوب المجاورة التي كانت بالفعل تتأثر بما يبلغها من أنباء، وتُسارِعُ لتقديم الطاعة والجِزْيَة من دون قتال.

ـ الشعب المخدوع:

ذلك الاقتناع الشعبي بأن ما جرى إنما كان لتمجيد اسم آشور لا ينمُّ فقط عن مستوى حقارة واختلال التفكير والعقيدة، بل ينم أيضًا عن القدرة الخارقة للملوك الآشورِيِّين في تغذية الشعب بفكرة «الحرب الْمُقَدَّسَة» التي كان الملك هو المستفيد الوحيد منها.. فما تم عبر سنوات من حكم هؤلاء الملوك هو تربية شعب كامل على مبدأ «الحرب لأجل آشور وارتكاب الفظائع باسمه» بينما كانت الحرب، في حقيقة الأمر، لأجل الملوك والنبلاء والقادة الذين كانت خزائنهم تتضخم من واردات الغنائم والجِزْيَة، الآتية من ممالك مصر وإِسْرَائِيل وبابل وسوريا وقَبَائِل بني إِسْمَاعِيل.. بينما كان الشعب يدفع الثمن من دمائه التي يقدمها عن طيب خاطر وهو يحسب أنه يحسن عملاً، ومن سلامته النفسيَّة التي دمرتها سنوات

من الحروب المستمرة وخلقت منه أكبر شعب مريض في التاريخ القديم. ما قام به ملوك الآشُورِيِّين لم يكُن سهلاً، فحتى مع انتشار فكرة «الملك الإله» في ممالك العراق القديم، وحتى مع الطبيعة الجبليَّة القاسية لشعوب تلك المنطقة، تبقى عملية زرع عقيدة دموية في شعب كامل عملية شديدة الصعوبة، ينمُّ نجاحها عن صبر وتنظيم شديدَين في ممارستها ثم جني ثمارها.

نهاية الكذبة:

ولكن لأن التمادي في الطغيان قد يعكس الآية ويجعل الغضب يبلغ حدًّا يفوق معه الخوف، فقد أدَّت السِّيَاسَة الآشورية في المنطقة إلى اتحاد الدول المغلوبة من آشور والتي عانت من غزاوت ومذابح الجيش الآشوري. فاتحدت ممالك مصر وإِسْرَائِيل والأنباط وقَبَائِل بني إِسْمَاعِيل وثوار بابل، وخرجت جيوش هؤلاء تحمل ميراثًا من الثورة والغضب جعلها تجتاح جيوش آشور، ولا تتوقف حتى تدخل نينوَى وتدمِّرها تمامًا، وتبيد أهلها الذين لم يدركوا الكذبة التي عاشوها إلا في آخر لحظة عندما رأوا قصر ملكهم الأخير يحترق، والملك يلقي بنفسه في النيران خوفًا من الأسر.

آتون:

المثال الآخر القويُّ على قدرة البعض على استخدام الدين في تحقيق أهدافه، هو ما جرى في مصر خلال عهد إخناتون. فبعد أن تَوَلَّى الحكمَ خلفًا لوالده، فجّر إخناتون ثورةً على عبادة الآلهة الْمِصْرِيَّة القديمة ـ بالذات آمون ـ لصالح إلهه «آتون» الذي لم يتخذ له رمزًا حيوانيًّا أو بشريًّا على غرار المألوف في مصر، بل لَخّص شكله في قرص الشمس. إخناتون لم يكتفِ بمجرد الثورة المعنوية، بل تمادى فوقف أيَّ عبادات سوى عبادة إلهه، وتَعَمَّد محو أسماء أي آلهة سواه من جدران المعابد، وأعلنها حربًا دِينِيَّة على ما يتعارض مع ما اعتبره «وحي آتون إليه»، فوقف عطايا وهِبَات كهنة آمون، وضيّق عليهم، وسعى لسلبهم أي نفوذ رسمي أو شعبي، ثم قام بتصعيد حربه فنقل عاصمته من طيبة إلى أخيتاتون **(تل العمارنة حاليًا).**

ـ الثورة على إخناتون:

كان من الطبيعي أن تثور ثائرة الكهنة لِمَا لحقهم من أذى، فمنذ سنوات عديدة سابقة كان نفوذهم في تصاعد، أولا لتَرَكُّز العاصمة في طيبة ـ مركز عبادة آمون ـ وثانيًا لأن آمون كان خلال حروب تحرير مصر من الهِكْسُوس رمزًا قوميًا، وأخيرًا لأنه بعد تحرير مصر كان مُحَرِّكًا معنويًا لجنود الحملات التي أطلقها خلفاء أحْمُس، بالذات تحتمس الثالث، لمد نفوذ مصر في مختلِف بقاع الأرض، حتى إن القادة الْمِصْرِيِّين كانوا يحرصون على تشييد معبد لآمون في كل أرض مفتوحة لتأكيد السيادة الْمِصْرِيَّة عليها. هنا، ومع الخطر الذي أدرك الكهنة حلوله بقوَّتهم الكاسحة، قرروا اللعب على أخطر وتر في نفس المِصْرِيّ: الدين. فأعلنوا صراحةً تكفير إخناتون ودعوا مختلِف فئات الشعب للثورة عليه ونصرة آمون.

ورغم أن ثورة الكهنة جاءت في المقام الأول غضبًا للانتقاص مِمَّا اعتبروه حقوقهم، أكثر من كونها غضبًا لآمون، فإنها لاقت تأييدًا واسعًا من فئات هامَّة من الشعب والنبلاء. فالعسكريون غضبوا من إعلان إخناتون أن «الشعوب كلها سواسية وإخوة»، وزاد غضبَهم ما ترتب على دعوته من ثورات للشعوب التي حكمتها مصر في سوريا والعراق، وطردهم الحاميات الْمِصْرِيَّة منها، ما أنذر بانهيار النفوذ المِصْرِيّ الذي كان ممتدًا من إثيوبيا جنوبًا إلى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط شمالاً. والخَبَّازون أغضبهم ما تَرَتَّب على وقف عبادات الآلهة الأخرى من توقف صناعة «خُبز الشعائر» الذي كان يُقَدَّم للآلهة خلال طقوس الصلاة لها. وصُنَّاع تماثيل تلك الآلهة شاركوا الخبَّازين غضبهم بسبب وقفهم عن تشييد التماثيل والجداريات لآلهة مصر ما وقف مورد رزقهم الوحيد. وكذلك الشعراء الذين كانوا يكتبون الصلوات لأجل تلك الآلهة الممنوعة. كل هؤلاء اتَّفَقت دوافعهم المادية في هدف واحد: إسقاط حكم إخناتون. فأعلنوا جميعًا تأييدهم لثورة الكهنة واعترفوا بتكفير الملك، وتحالفوا مع الفئة المحافظة التي رأت في تصرفات إخناتون هرطقة وخروجًا على الموروث والتقاليد، تلك الفئة الأخيرة كان غضبها حقًّا لآمون عن إيمان حقيقي.. ولكن اتَّفَقت أهدافها مع الذين أرادوا الثورة خوفًا على مصالحهم. فكان الهدف واحدًا والدوافع مختلفة.

وبدأ المتحالفون الحرب النفسيَّة على الملك، من إعلان كفره إلى اتهامه بالشذوذ والجنون، ثم تشكيكه في كل مَن حوله والتأثير عليهم واحدًا تلو الآخر، لدفعهم إلى تركه يواجه العاصفة وحده.

لم يستطع الملك الشابُّ التماسُك أمام الثورة التي أطاحت بعرشه ورسالته، خصوصًا مع انسحاب مؤيديه من حوله واحدًا تلو الآخر، وكانت الضربة القاصمة له بانسحاب كل من صديقه المقرب القائد حورمحب، وزوجته وشريكة عرشه نفرتيتي. فالأول انضمَّ إلى القادة الثائرين غضبًا لتدهور نفوذ مصر وفقْدَانها مستعمراتها في آسيا، والثانية حسبت أن انسحابها من الحياة الدِّينِيَّة والسِّيَاسِيَّة قد يخفِّف من وطأة الثورة، ولكن في النهاية سقط الملك أمام الغضب العارم، وتم اغتياله في قصره بشكل أحاطه الغموض، ثم القضاء على كل من أيَّدوه أو دارت الشكوك حول تأييدهم له. عملية حصاد دامية طالت كل من له يد في ما قام به إخناتون.

ـ الأوراق المختلطة:

كانت تلك الثورة على الفرعون من أغرب الثورات، فللمرة الأولى في تاريخ مصر تتفق أهداف أصحاب المصالح (الكهنة، العسكريون، الخبَّازون، صُنَّاع التماثيل) مع أهداف مَن غَضِبُوا حقًّا لدياناتهم القديمة (المحافظون، عامَّة الشعب)، بل ويستخدمون جميعًا نفس الطريقة لإسقاط خصمهم ولإدارة عملية تصفية ضدَّ مؤيديه، بينما يدَّعي الكل الثورة لهيبة آمون فقط من دون أدنى أهداف دنيوية، بشكل يجعل الباحث يَحَارُ في تمييز صاحب المصلحة عن ذلك الثائر حقًّا لعقيدته... إلا أن المتفَق عليه أن الشرارة الأولى اندلعت في مجتمع كهنة آمون الذين راعهم ضرب مصالحهم ونفوذهم، وأنه لولا ذلك ربما لاختلفَت الأمور كثيرًا.

مجرَّد مثال:

دولة آشور ـ ثورة إخناتون: كلتاهما كانت مجرَّد مثال على قدرة البعض على تحريك جيوش والإطاحة بملوك وتفجير أنهار من الدم باسم الإله.. ليستا سوى مثالين لأمور جرت في بعض العصور وبعض العهود.. لعبة لم تتوقف منذ بدأت.. بل تطورت وتقدمت قوانينها وطرق ممارستها عبر القرون.

نترك مصر وآشور.. ونتحرك مع تيَّار نهر الزمن قرونًا إلى الأمام، إلى حَدَث جلل يترتب عليه قيام معركة طويلة رهيبة يجد فيها الدين نفسه بين أسلحتها.. نذهب إلى أرض فلسْطِين.. تحديدًا بلدة بيت لحم.. في صومعة صغيرة متواضعة تتعبد فيها فتاة اسمها مريم.. كانت تحمل في بطنها مولودًا سيغيّر شكل العالم..

مصادر المعلومات:

1. محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
2. موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.
3. الديانة الْمِصْرِيَّة القديمة: د/ عبد الحليم نور الدين.
4. المعبد في الدَّوْلَة الحديثة في مصر الفرعونية: د/ بهاء الدين إبراهيم محمود.
5. الآلهة والناس في مصر: فرانسواز دونان ـ كريستيان زافي كوش.
6. ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان.
7. المجمل في تاريخ مصر: د/ ناصر الأنصاري.
8. موسوعة الحروب: هيثم هلال.
9. أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلامي: د/ شوقي أبو خليل.

دماء على عتبات الإله ـ الجزء الثاني

جاء عيسى/يسوع المسيح، وبمجيئه أخذت المعركة شكلاً جديدًا.. بدأ في أرض فلسْطِين ثم امتدَّ إلى العالم كله.. جاء المسيح ينادي بالعدل والحق والأمانة وقيم أخرى كثيرة لم يرَ فيها أعداؤه ملاءَمةً للعصر.. فأعلنوها حربًا شعواء.. ولأنهم لا يستطيعون شن حرب علنية على مبادئَ لا يختلف على صحَّتها اثنان فقد كان لا بُدَّ لهم من ستار قويٍّ يستترون به في حربهم.. وكان الدين هو هذا الستار.. فلا صوت يعلو فوق صوت الغضب للإله.

ـ النبوءة والمذبحة:

الحرب على المسيح بدأت فور ميلاده، فقد دلف على هيرود ـ ملك الْيَهُود ـ ثلاثة من الكهنة المجوس، أخبروه أن ملك الْيَهُود الذي تقول النبوءات إنه سيزعزع ملكه قد وُلِدَ. وفورًا أصدر هيرود أمرًا بقتل كل طفل لم يتجاوز العامين في مدينة بيت لحم حيث وُلِدَ المسيح. في ذلك الوقت كان السيد المسيح ينتقل إلى مصر رضيعًا تحمله السيدة مريم العذراء حيث بقيا لفترة من الزمن، حتى مات هيرود وجاء من بعده ابنه أنتيباس هيرود ـ هيرود الابن ـ وأصبح الوضع آمنًا للعودة إلى فلسْطِين.

ـ تعدُّد للأسباب.. والعداء واحد:

١ ـ ملك الْيَهُود:

في ذلك الوقت، كانت أرض فلسْطِين تحت الحكم الرُّومَانِيّ، وكان هيرود الابن يحكم تحت سلطة قياصرة روما. ورغم أنه يهودي الأب وعَرَبِيّ الأم فقد كان من أشدِّ المغرقين في تقليد سادته الرُّومَان، في نمط الحياة وأسلوب الحكم، ما جعله موضع نقمة الْيَهُود الفرّيسيين (السلفيين المتشددين) الذين كانوا ينتظرون قدوم المسيح (مشيحا) الْمُخَلِّص ليقودهم لحكم الأمم. في تلك الظروف جاءت دعوة المسيح الذي كسب عداء الجميع من

اللحظة الأولى. فهيرود وجد فيه النبوءة القديمة التي حاول أبوه القضاء عليها، وكان هيرود قد تَخَلَّص لتوه من يحيى بن زكريا عقابًا له على تصدِّيه لزواجه بامرأة أخيه بينما هذا الأخ على قيد الحياة. كما أنه خشي تحقق النبوءة وثورة الْيَهُود على سادته الرُّومَان ما يضعه في موقف حرج، فلو ساند الْيَهُود لغضب عليه السادة وخلعوه وربما قتلوه، ولو أخمد تلك الثورة فهذا معناه تكفيره وإباحة دمه للشعب، بالتالي لم يكُن من حل أمامه ـ وأمام الطبقة الحاكمة بشكل عامٍّ ـ سوى تكذيب المسيح واتهامه بالنصب على الشعب الْيَهُوديّ وادِّعاء النُّبُوَّة كذبًا، وإعلان أن زمن المشيحا الْمُخْلِّص لم يأتِ بعد.

٢ ـ الكهنة:

أما كبار الكهنة فقد وجدوا في الدعوة الْمَسِيحِيَّة خطرًا على نفوذهم على الْيَهُود، وتهديدًا لمصادر دخلهم المتمثلة في قرابين المعابد، والأموال المقدَّمة للهيكل الذي كان قد تحول من دار لعبادة الله إلى سوق كبيرة يقف فيها الصيارفة وتمرح فيها البهائم، بمباركة هؤلاء الكهنة الذين كان لهم نصيب في تلك التجارات. كما كانت هيبة الكهنوت تضع لهم في ضمير الشعب موضع الواسطة بين الْيَهُوديّ وربِّه، ما خلق لهم سلطة روحية رهيبة جعلت المناصب الكهنوتية موضع منافسة حامية بين أَبْنَاء كبريات العائلات.

٣ ـ الْيَهُود الفِرّيسيون:

الفئة الأخيرة التي ناصبت المسيح ودعوته العداء تمثلت في طائفة الْيَهُود الفرّيسيين (السلفيين المتشددين) الذين كانوا ينتظرون منه أن يدعوهم للثورة على حكم الرُّومَان، وأن يقودهم للحرب الْمُقَدَّسَة ويقيم فيهم مُلْكًا عظيمًا على غرار أسلافهم القدامى، طَالُوت وداوُد وسليمان، فصدمتهم دعوته للسلام و«إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله» والصبر حتى يأتي ملكوت السماء، فثاروا عليه وعلى ما جاء به.

أما السبب الذي اتَّفَق جميع أعداء المسيح على الخوف منه فهو أن يتأثر الرُّومَان بتلك الدعوة الجديدة فيعتنقوها، ما يؤدي إلى اضطهادهم الْيَهُودَ، كعادة الرُّومَان في سعيهم

الدائم لفرض عقيدتهم المركزية على مستعمراتهم.

ـ الحرب الْمُقَدَّسَة:

كان هذا اتفاقًا للقوى الثلاث (الملك، الكهنة، المتشددين) على معاداة المسيح، رغم أنهم جميعًا كانوا يعلمون أنه المسيح الحقيقي الذي جاء في البشارات. لكنهم أجمعوا على تكفيره وتشويه صورته وإعلان «الحرب الْمُقَدَّسَة» عليه من أجل «نصرة الْيَهُود على ذلك الذي جاء لدس الفتنة بينهم». ورغم العداء المتبادل بين الفئات الثلاث المذكورة، اتَّحَدت إراداتهم وتناسقت جهودهم في تلك الحرب الشعواء التي شنُّوها على المسيح وأتباعه، فمن محاولات لإحراجه أمام الشعب بمجادلات متشابكة، إلى الطعن في شرف أمِّه السيدة العذراء، انْتِهَاءً بتأليب السلطات الرُّومَانِيَّة عليه، من خلال إيهام الحاكم الرُّومَانِيّ بأن المسيح يرغب في إقامة مملكة مستقلَّة عن روما وطرد الوجود الرُّومَانِيّ بفلسْطِين.. ولما لم يقتنع الحاكم الرُّومَانِيّ بيلاطس بدعواهم هددوه بإبلاغ قيصر عن تقاعسه عن إخماد التَّمَرُّد الذي يهدِّد ملكه.. فاضطُرَّ إلى دعمهم بجند الحامية الرُّومَانِيَّة، وكانت هذه بداية لاضطهاد امتدَّ إلى ما بعد عهد المسيح، مارَسَ فيها الْيَهُود أعتى أنواع التعقُّب والمطاردة والاضطهاد لكل مَسِيحِي، بدعوى حماية دينهم الْيَهُوديّ وشعبهم من الفتنة الكبرى.

ـ البطش الرُّومَانِيّ:

الرُّومَان ـ رغم تسامحهم مع عقائد كثيرة ـ لم يعاملوا الْمَسِيحِيَّة بالمثل، فأولاً نجح أعداء المسيح من الْيَهُود في إقناع السلطات في روما بفكرة دعوة المسيح للثورة عليهم، وثانيًا كان الرُّومَان يخشون أن تكون الْمَسِيحِيَّة بمثابة نشأة لقومية جديدة لا مجرَّد ديانة، كما حدث للْيَهُودِيَّة على يد كبار أحبار الْيَهُود، ما يجعل السيطرة على الْمَسِيحِيِّينَ مهمة شاقة، وأخيرًا كانوا يخشون أن يعتنق كبار الشعوب المحكومة الدين الجديد بما فيه من مبادئ تدعو إلى التقشُّف والزُّهد، ما يجعلهم غير قابلين للإفساد بالرشوة، والعطايا الرُّومَانِيَّة المستمرَّة التي كانت تضمن للرومان ولاء الكثير من الزعماء الشعبيين وأتباعهم. قامت إذن الدنيا ولم تقعد، حرب بربرية عاتية الشراسة حمل فيها الْيَهُود شعار حماية الشريعة

الموسوية، ورفع فيها الرُّومَان رايات آلهتهم «جوبيتر» و«أبوللو» و«مارِس» وغيرها من الآلهة.. بينما يعلم الجميع حقيقة أن الإله الوحيد الذي شُنَّت هذه الحرب باسمه اسمه «المصلحة»!

إذن تلقف الرُّومَان الكرة من الْيَهُود وأعلنوا تجريم اعتناق الْمَسِيحِيَّة وفرض العبادات اللاتينية بقوة السلاح، في محاولة منهم لإظهار الأمر في صورة الحرب الدِّينِيَّة.. بينما كان واضحًا لكل عقل مفكِّر أن ذلك لم يكُن عن غيرة الرُّومَان على عقيدة ما، فكل إِمْبِرَاطُور كان له معبوده وإلهه، بل كان من الأباطرة مَن أمر بعبادة ذاته، كما فعل نيرون الذي امتدَّت يده الباطشة بكل مَسِيحِي في كل أرض ارتفع عليها النسر الرُّومَانِيّ.. ورغم عدم احتياجه كديكتاتور إلى أي مبرِّرات أمام شعبه فقد حَرَص على شنِّ حرب دعائية على الديانة الْمَسِيحِيَّة، فاتهم الْمَسِيحِيِّينَ بممارسة شعائر همجية تتضمن أفعالاً لا تُقِرُّها الأخلاق، وعندما فشلت دعايته في تأليب الشعب على الْمَسِيحِيِّينَ دسَّ رجالاً له أحرقوا مدينة روما، وسارع إلى اتهام أتباع الدين الجديد بارتكاب تلك الجريمة، ليبدأ بعدها سلسلة من أعمال الإبادة الجماعية لهم سواء بالصَّلْب أو الْحَرْق، أو الإلقاء للحيوانات المفترسة في ساحات المصارعة (الآرينا).. وعلى نفس المنهج سار خلفاؤه الأباطرة، بالذات دِقْلِدْيَانُوس الذي سُمِّيَ عصره بـ«عصر الشهداء».

ـ مقاومة حتى النصر:

تَحَالُفُ فرضته المصلحة وقع بين الْيَهُود والرُّومَان ضِدَّ الْمَسِيحِيَّة وأتباعها.. وتجنيد كامل لكل إمكانيات روما من أجل القضاء على الدين الجديد.. لكن مع ذلك لم تتمكن تلك الجهود المضنية من إفناء الْمَسِيحِيَّة ولا الْمَسِيحِيِّينَ الذين استعانوا بالصبر والتحايل على الظروف القاسية التي حاصرتهم.. ومارسوا صورًا من المقاومة السلبية.. كممارسة العبادة والدعوة سرًّا، أو تأسيس الأديرة في المناطق النائية صعبة البلوغ.. ولأن الْيَهُود والرُّومَان رغم اتحاد هدفهم لم يكُن لهم مبدأ واحد، بينما كانت للمسيحيين أهداف ومبادئ وأساليب محددة نفذوها تحت إشراف زعاماتهم بدقة شديدة، فقد كانت النتيجة الطبيعية هي فشل

أعداء الـْمَسِيحِيَّة في القضاء عليها، بل وتسللها إلى قلب روما ذاتها، حتى تحقق النصر أخيرًا بأن اعتنق الإِمْبِرَاطُور جستنيان الـْمَسِيحِيَّة، منهيًا بذلك سنوات طويلة من المعاناة القاسية للمسيحيين.

الاضطهاد البِيزَنْطِيّ:

بعد صبر امتد زمنًا طويلاً، اعتنق خلاله الرُّومَان الـْمَسِيحِيَّة وانقسمت إِمْبِرَاطُوريتهم إلى دولتين: شرقية بِيزَنْطِيَّة عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حاليًا)، وغربية عاصمتها روما، أصبحت مصر في نصيب بِيزَنْطَة. ولكن اعتناق الدَّوْلَة الرُّومَانِيَّة الشرقية الدين الـْمَسِيحِي لم يكُن نهاية للاضطهاد، بل أصبح مجرَّد بداية لمرحلة أخرى منه. فالمذهب الذي اعتنقه البِيزَنْطِيُّونَ كان مختلفًا عن ذلك الذي آمن به الأقباط، ما حوّل الحرب من «حرب أديان» إلى «حرب مذاهب» فبدأ عصر شهداء جديد حاول فيه البِيزَنْطِيُّونَ فرض مذهبهم بالقوة على الْمِصْرِيِّين، لكي يصبح ولاؤهم فقط للكَنِيسَة البِيزَنْطِيَّة.

الأسباب:

وكما كان الاضطهاد الأول يحمل اسم حماية العقيدة زورًا، كان الاضطهاد الثاني كذلك.. فالحرب البِيزَنْطِيَّة على الكَنِيسَة القِبْطِيَّة لم تكُن لها أهداف دِينِيَّة بقدر ما كان الغرض منها القضاء على الزعامة الشعبية الْمِصْرِيَّة، الممثَّلة في بطريرك الإسكندرية وكبار رجال الدين الـْمَسِيحِي الْمِصْرِيِّين، فقد كان البِيزَنْطِيُّونَ يخشون دومًا السطوة الروحية لرجال الدين الْمِصْرِيِّين على شعب مصر، تلك السطوة التي تكونت وتعاظمت منذ عرفت مصر الأديان القديمة. وكان المحتَّكون من رجال السِّيَاسَة في القسطنطينية يعلمون، من قراءتهم التاريخ المِصْرِيّ، ما عاناه أسلافهم البطالمة من ثورات الْمِصْرِيِّين في الصعيد بقيادة كهنة آمون في طيبة، خلال النصف الثاني من العصر البَطْلَمِيّ. ولما كانوا يدركون أن المِصْرِيّ هو المِصْرِيّ سواء كان زعيمه كاهنًا آمونيًا أو بطريركًا مَسِيحِيًا، فقد رأى هؤلاء الساسة أن وجود كَنِيسَة مِصْرِيَّة مستقلَّة هو بداية لإضعاف القبضة البِيزَنْطِيَّة على مصر.

ـ تكفير.. اضطهاد.. مقاومة:

انعقد مجمع دينيّ في مدينة «خلقيدونية» البِيزَنْطِيَّة تَقَرَّر فيه تكفير أتباع الكَنِيسَة الْمِصْرِيَّة وتحريم التعبُّد بمذهبها. ورغم أن المجمع ضم رجال دين مسيحيين مؤمنين بالفعل بمذهبهم، فإن استدعاءهم من الملك البِيزَنْطِيّ إنما جاء لجعلهم ستارًا للهدف السِّيَاسِيّ الحقيقي، وهو القضاء على بوادر استقلالية مصر.

كان قرار التكفير بمثابة إطلاق ليد السلطات البِيزَنْطِيَّة في ممارسة مخططها للتنكيل بقيادات وأتباع الكَنِيسَة القِبْطِيَّة، إلى حين القضاء عليهم تمامًا أو إجبارهم على تغيير مذهبهم.. وكما صَبَر الْمِصْرِيُّونَ أمام البطش الرُّومَانِيّ، استمدُّوا من تجربتهم السابقة صبرًا مضاعَفًا في مواجهة البطش البِيزَنْطِيّ الذي استهدف كنائسهم وبَطَارِكَتَهم.. فتضاعفت حركة الرهبنة وبناء الأديرة، بالذات في صحارى الصعيد والصحراء الغربية، ومُورِسَت العبادات والصلوات القِبْطِيَّة سِرًّا، بل وأدَّت هذه الظروف إلى امتداد الرفض المِصْرِيّ للبِيزَنْطِيِّينَ ككلٍّ لا كمذهب فقط، فبدأ كبار المثقفين الْمِصْرِيِّين في تدوين وحفظ التراث المِصْرِيّ، ونشأت اللغة القِبْطِيَّة كأداة لطرد اللغة اللاتينية التي فرضها الروم.. وبلغ تصعيد المقاومة ذروته عندما مد الأقباط يد العون إلى العرب في فتحهم لمصر، بأن بنوا لهم الجسور لعبور قواتهم، وتعمدوا إثارة القلاقل في المدن الْمِصْرِيَّة ليجعلوا الروم بين نارين ويشتتوا جهودهم الحربية.

هكذا انْتهت أحداث فصل طويل من محاربة الدين نفسه باسم الدين! والمذهب باسم المذهب.. لكنها تبقى نهاية مرحلة من اللعبة.. أو مجرَّد فصل من القصة الطويلة التي لا نعرف متى تنتهي...

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.

2. موسوعة الْيَهُود والْيَهُودِيَّة والصِهْيَوْنِيَّة: د/ عبد الوهاب المسيري.
3. حياة المسيح: عباس محمود العقاد.
4. محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
5. الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والرُّومَانِيّ: د/ أبو اليسر فرح.
6. تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د/ عمر صابر عبد الجليل.
7. رحلة العائلة الْمُقَدَّسَة: لوسيت فالنسي.
8. مجتمع الإسكندرية القديم: د/ محمد السيد عبد الغني.
9. تاريخ مصر في العصر البِيزَنْطِيّ: د/ صبري أبو الخير سليم.
10. مصر في عصر الرُّومَان: د/ الحسين أحمد عبد الله.

دماء على عتبات الإله ـ الجزء الثالث

الآشوريون.. الفراعنة.. الْيَهُود.. الرُّومَان.. البِيزَنْطِيُّونَ.. لم تكُن لعبة الحرب بذريعة الدين حكرًا عليهم.. ولا هي توقفت عندهم.. فالأمر لم يكُن يومًا حكرًا على أُمَّة بعينها.. واللعبة ليس لها من محتكر.. وما يختلف بشأنها من أمة لأمة هو الأسلوب لا أكثر.. أما الفكرة والأصل، فثابتان في كل البشر.

ـ الفارقليط:

في دولة الفُرس كانت لقصتنا فصول مثيرة، ففي الفترة ما بين مبعث عيسى/يسوع المسيح والرَّسُول محمد، ترددت بشارة منسوبة للمسيح إلى العالم بمبعث نبي ورسول من بعده لقّبه بـ«الفارقليط» أي «الْمُعَزِّي». كذلك ترددت هذه النبوءة في كتابات «زرادشت» مؤسِّسَة عقيدة الفُرس. خلال تلك الفترة ظهر في فارس أكثر من رجل ادَّعى لنفسه تلك النبوَّة، ودعا إلى عقيدة جديدة تختلف عن العقيدة الزرادشتية التي كانت الديانة الرسمية للدولة التي اعتادت سلطاتها التَّصَدِّي لتلك العقائد.. إلا أن أخطرها أثرًا وأكثرها اتصالاً بفكرة تسخير الدين لصالح السِّيَاسَة وتسببًا في إراقة الدماء كانت الدعوة «المزدكية»...

ـ المزدكية:

ظهر رجل اسمه «مزدك بن نامذان» ادَّعى أنه الفارقليط الْمُنتَظَر، ودعا إلى ديانة جديدة لها كتاب مقدس أسماه «الزِّند» (والمؤمن به يُدعَى الزنديق) دعا فيها لبعض الأمور المستقاة من بعض العقائد الفَارِسِيَّة القديمة، لكن ما كان جديدًا بعقيدته تلك، هو دعوته إلى إلغاء الْمِلكيَّة الفردية لأن استئثار الإنسان بمال أو أرض أو بيت أو أي ممتلكات هو السبب ـ على حد قوله ـ في شيوع الحسد والحقد واعتداء الإنسان على أخيه الإنسان، وأن الوضع المثالي هو ألا يمتلك الفرد سوى قوت يومه، بينما تبقى بقية الأشياء على المشاع بين الناس.

الدعوة الجديدة وجدت تأييدًا شديدًا بين فئة كبيرة من عامة الشعب، تحديدًا الفئة المطحونة اجتماعيًّا، فتكاثر أتباع مزدك وعظمت قوتهم، وبلغ «قباذ» كِسْرَى الفُرس خبر تعاليم الدين الجديد فاتبعه، لا عن اقتناع وإنما عن رغبة في تقليم أظفار كبار رجال الدين الزرادشتي الذين كانت قوتهم في تعاظم، ما جعلهم يتدخلون في أدقِّ شؤون الحكم.
اعتناق الملك للمزدكية شجَّع أتباع مزدك على ارتكاب أعتى صور السلب والنهب في حق الأثرياء وأشراف الطبقة الأرستقراطية، بِحُجَّة تطبيق شيوعية الممتلكات بالقوة، ولم تسلم النساء من ذلك العدوان، فشيوعية مزدك شملت النساء كما شملت الجمادات والأموال، وزاد الطينَ بلَّةً أن الملك أصدر قوانينَ صارمة تبيح ما فعل المزدكيون، وبلغ قمَّة تأييده لهم أن سلمهم وليَّ عهده «كاووس» ليربُّوه على المبادئ المزدكية.

ـ تَحَالُفٌ مُضادٌّ:

التحالف بين كِسري الراغب في القضاء على سلطة الكهنة، وبين مزدك وأتباعه الراغبين في الخروج من مطحنة الفقر والحاجة، واجهه تحالف آخر بين كهنة الزرادشتية وطبقة النبلاء الذين تَضَرَّرُوا مِمَّا جرى وخشوا أن تضيع سطوتهم، بسبب ذلك الانقلاب الاجتماعي الخطير. كذلك أثارت القوانين الجديدة سَخَطًا بين المتدينين والمحافظين من العامة، خصوصًا تلك المتعلقة بشيوع النساء، في المجتمع الفَارِسِيّ المعروف بشدة الغيرة على نسائه. وهال الجميعَ ما وقع من قباذ عندما تَمَرَّد نَصَارَى مدينة «آمد» على قوانينه المزدكية الشيوعية، فدهم الْمَدِينَة بجيش جرَّار وأحدث فيها مذبحة مروِّعة وأباح نهبها لجنوده ـ مخالفًا بذلك تعاليم مزدك المجرِّمة لقتل النفس إلى حدِّ النهي عن مجرَّد صيد الحيوان ـ ومن دون أدنى اعتراض من المزدكيين على ذلك الخرق لتعاليم نبيهم، ما دام ذلك لا يمسُّ أهدافهم الحقيقية في تغيير بنيان المجتمع لصالحهم.

الكهنة والنبلاء قرروا معًا خلع قباذ وسجنه وتولية أخيه «جاماسب»، وبعد أن قام رجال الدين المجوس ببث الدعاية في صفوف المتدينين من الشعب ضِدّ الملك الزنديق، ليضمنوا

تأمين جبهتهم الشعبية، نفَّذ المتحالفون مخططهم، وقبضوا على قباذ وسجنوه، ولكنه هرب من سجنه وتوجه إلى الصين حيث أمدَّه الخاقان بجيش استعاد به مُلْكَه مجددًا.

ـ الوجه الآخر:

بعد تفكيرٍ، وجد قباذ أن تحالفه مع المزدكيين لم يساعده على إضعاف سلطة الكهنة بل، بالعكس، أمدهم بالدعم الشعبي وتسبب في تحالفهم مع الطبقة الأرستقراطية التي كانت تتكون من أبنائها أقوى أجنحة الجيش. أعاد كِسْرَى حساباته وقرر أن الوقت قد حان للتخلي عن تأييد مزدك ولإصلاح علاقته بالكهنة والنبلاء، فقرر خلع ابنه «كاووس» ـ الذي تَرَبَّى على المزدكية ـ من ولاية العهد، وتولية ابنه «خسرو» بدلا منه.

ما إن أقدم الملك على تلك الخطوة حتى أدرك المزدكيون أنهم فقدوا تأييد القصر، فتفجرت فيهم ثورة عارمة وألقوا جانبًا مبادئ الحب والإخاء وحرمة النفس، وانقضُّوا على قصور الأشراف مُحْدِثِينَ فيها أبشع موجة نهب وسلب يمكن تخيُّلها، واعتدوا على النساء مُظهِرين الوجه الحقيقي للحقد الطبقي كمحرك لدعواهم الْمُقَنَّعَة بالدين.

ـ نهاية المزدكية:

بعد أن أدرك المزدكيون علانية عداء قباذ لهم، حاولوا إعادة ابنه «كاووس» إلى ولاية العهد من خلال دعوتهم الملك والكهنة المجوس ورجال الدين الْمَسِيحِي لمناظرة علنية. فوافق الملك مُظهِرًا سعة الصدر والترحيب بالحوار مع الآخر. بدأ مزدك الحوار بالحديث عن أدلَّة صدق نبوَّته، وأنه هو الفارقليط الذي جاء في نبوءات زرادشت وبشارة عيسى، وأخذ يذكر تعاليم دينه وأدلَّة صحتها. ثم جاء الدور على كهنة الزرادشتية الذين أخرجوا كتبهم الْمُقَدَّسَة، وأظهروا ما فيها من صفات للفارقليط تتعارض مع ما جاء به مزدك، وأيَّدَهم في ذلك أسقف نَصَارَى فارس، وكذلك رجال الفلك والتنجيم، فأفحموا جميعًا مزدك وأتباعه الذين فوجئوا بـ«خسرو» ـ ولي العهد الجديد ـ وجنود الحرس الملكي يحاصرونهم ويُحدِثون فيهم مذبحة وحشيَّة قُتِلَ فيها مزدك وكلُّ من معه، وسط تهليل الشعب ورجال

الدين الذين لَقَبَّوا خسرو بـ«أنوشروان» أي «الروح الخالدة». وأصبحت كلمة «زنديق» ـ أي المؤمن بكتاب «الزِّند» ـ تُستَخدَم لوصف كل من يُحدِث بدعة عَقَدِيَّة جديدة خارجة عن العقيدة العامة. وانطوت صفحة دامية من قصة تطويع الدين لارتكاب أعتى الأعمال.

الحرب باسم المسيح ـ حَمْلة أبرهة:

عودةً إلى سِيَر الحروب تحت راية الأديان السماوية، في جزيرة العرب هذه المرة، فقد ظهرت تجرِبة جديدة لادِّعاء الغيرة على الدين لتحريك حملة عسكرية كاملة، وكان ذلك على يد أبرهة الأشرم، والي نجاشي الحبشة على اليمن. فبعد أن غزا الأحباش المسيحيون اليمن ودمَّروا مملكة حِمْيَر الْيَهُودِيَّة، قرر الحليفان ـ البِيزَنْطِيّ والحَبَشِيّ ـ القيام بحملة عسكرية لغزو الجزيرة العَرَبِيَّة كلها، لتكون درعًا مَسِيحِيَّة تقف في وجه النفوذ الفَارِسِيّ في المنطقة. لم يكُن أي من النجاشي أو قيصر يعبأ بما يعتنقه العرب، لكن كلاًّ منهما اتَّفَق مع الآخر في أن تنصير الجزيرة من شأنه ربط مسيحيي الجنوب (الأحباش واليمنيين) بمسيحيي الشمال (البِيزَنْطِيِّينَ وقَبَائِل عرب الشام) برباط قومي واحد، يقف حائلاً دون تسلل الفرس إلى الجزيرة العَرَبِيَّة الذي تَمَثَّلَ في اعتناق قبيلة «تميم» الديانة المجوسية، وانتشار تُجَّار الفُرس وجواسيسهم في الأراضي العَرَبِيَّة، بالذات منطقة الحجاز.

كذلك كان من شأن السيطرة على الجزيرة العَرَبِيَّة كلها وضع اليد على طرق التجارة بين الشمال والجنوب، وهو الحلم الرُّومَانِيّ القديم الذي ورثته بِيزَنْطَة وعملت على تحقيقه بالتعاون مع الحبشة.

الذريعة:

كانت الخطة الحَبَشِيَّة البِيزَنْطِيَّة هي أن يتحرك الجيش الحَبَشِيّ إلى الشمال حتى يحتلَّ مكَّة ومحيطها، بينما تفرض بيزنطة نفوذها على الشمال عبر القبائل ومملكة الغساسنة الموالية لها.. وبالفعل بدأ أبرهة استعداداته، ولكن كانت تنقصه الذريعة للقيام بعمل ضخم كهذا من شأنه تعريضه لمعاداة القَبَائِل العَرَبِيَّة كلها، ومنها قَبَائِل تدين بالـمَسِيحِيَّة يحتاج

إلى دعمها المادي والمعنوي.. بالتالي كان لا بُدَّ من إيجاد حُجَّة قوية تضمن تأييد مثل تلك القَبَائِل أو على الأقل تحييدها. وسرعان ما أتت الذريعة المنشودة، فأبرهة كان قد بنى في اليمن كَنِيسَةً فخمة وأرسل يدعو نَصَارَى العرب إلى الحج إليها. لم تكُن تلك مجرَّد كَنِيسَة، بل كانت رمزًا للنفوذ الحَبَشِيّ على جنوب الجزيرة، وفخرًا للنصرانية في اليمن. وذات يوم ادَّعى أبرهة أن رجلاً عَرَبِيًا قعد في كنيسته ودنَّسها، وثار وحلف إن شيئًا لن يزيل الدنس عن كنيسته سوى هدم كعبة العرب الذين لم يراعوا حرمة بيت الله! كان اختيار الكعبة بالذات لأن مكَّة كانت بمثابة العاصمة الروحية لعرب الجزيرة بكل طوائفهم، وكانت لقريش ـ بحكم رعايتها الكعبة ـ قدرة كبيرة على حشد العرب لمقاومة الغزو الحَبَشِيّ، بالتالي رأى أبرهة أن هدم الكعبة وإظهار فشل قريش في حماية حرمها من شأنه إفقادها زعامتها، وبالتالي قدرتها على توحيد الصفوف في مواجهة جيشه، ما يجعله يواجه قَبَائِل متفرقة لا جيشًا عَرَبِيًا موحَّدًا منظَّمًا. كان هذا هو السبب الحقيقي لاستهدافه الكعبة بالذات، لا عن غضب حقيقي لكنيسته كما قال، ولا عن غيرة من حَجِّ العرب إلى الكعبة كما تقول بعض الروايات الساذجة.

الهزيمة:

تقول الرواية «الإسلامية» إن أبرهة وجيشوا قد أفنتهم «الطير الأبابيل»، بينما تذكر بعض المصادر فناء الجيش بالجدري، أيًا يكن فقد تعرض الجيش الحبشي لهزيمة قاسية عند مكة، وبهذا فقد الأحباش هيبتهم لدى العرب، وسرعان ما سقطت دولتهم في اليمن على أيدي القائد اليمني الْيَهُوديّ سيف بن ذي يزن وحلفائه الفُرس.

كانت تجرِبة أبرهة نموذجًا لاستخدام الدين لحشد جيش جرَّار من المقاتلين المتحمسين لنصرة دينهم والثأر لكنيستهم، بينما هم في حقيقة الأمر يخرجون لتنفيذ مخطط سياسي بعيد المدى تَمَّت صياغته في بلاط الحُكم ومجالس القادة. وكذلك مثّل مبرِّر الحملة صورةً للدعاية السِّيَاسِيَّة (ذات الصبغة الدِّينِيَّة) الموجهة للرأي العام، لضمان عدم وجود تحرك مضاد من شأنه إفساد الأهداف الخفيَّة للعمل العسكري.

هكذا انتهت حلقة من الحرب «باسم الإله» لتليها حلقة تالية في هذه السلسلة اللانهائية من المتاجرة بالدين لصالح الحكم والأطماع الدنيوية..

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. المدخل في تاريخ الأديان: د/ سعيد مراد.
3. الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
4. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
5. المِلَل والنِحَل: الشهرستاني.
6. محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
7. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
8. جزيرة العرب قبل الإِسْلام: برهان الدين دلّو.
9. تاريخ قريش: د/ حسين مؤنس.
10. أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلامي: د/ شوقي أبو خليل.
11. تاريخ العرب القديم: د/ توفيق برّو.

دماء على عتبات الإله ـ الجزء الرابع

إيران.. النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي...

رجل دين سُنِّيٌّ يغادر المسجد بعد أن أَمَّ الناس لصلاة الجمعة.. يقترب منه سائلان يستعطفانه، يمد يده إلى جيبه، يُخْرِج لهما بعض الصدقة، ينحني أحدهما سريعًا مُظهِرًا رغبته تقبيلَ يد الشيخ، ثم يفاجأ الجميع بالسائلَين يغرسان خنجرَيهما في جسد الرجل وينهالان عليه بالطعنات، وعندما يفيق الجمع من ذهوله وينقضُّ عليهما ضربًا حتى الموت تكون آخر كلماتهما: «نحن قرابين الإمام».. عندها، يعرف الجميع أنهما من طائفة «الحَشَّاشِين»!

ـ النشأة:

الحَشَّاشُون، الحشيشية، الْبَاطِنِيَّة، الملاحدة، التعليمية، كلها مرادفات لطائفة واحدة احترفت الاغتيال باسم الدين، نشرت الرعب والدم والفساد خلال أهم قرون العصور الوسطى. نشأت تلك الفئة في إيران، مناطق الجبال تحديدًا، حيث بدأ مؤسِّسها حسن الصبَّاح* تأسيس أول قاعدة لها في قلعة جبلية حصينة اسمها «آلموت» أي «عُشّ العُقاب» بالفَارِسِيَّة، وكان قد استولى عليها من صاحبها بالحيلة. الاسم نفسه مرجعه أمران: الأول هو ما شاع عن أن مقاتلي تلك الحركة كانوا يتعاطون مخدِّر الحشيش قبل الخروج لقتل الخصوم، والآخر أن بعض رجال الدين السُّنِّيين الذين قدحوا في مذهب الْبَاطِنِيَّة، سخروا من أفكارهم الفاسدة بأن قالوا: إنهم لم يأتوا بها إلا تحت تأثير الحشيش.

كانت بداية تأسيس الجَمَاعَة هي الدعوة إلى نصرة نزار بن المستنصر الفَاطِمِيّ** ـ الإمام المظلوم ـ الذي غصبه الوزير بدر الجمالي حقَّه في الولاية، وكان حسن الصبَّاح قد حمل معه من مصر محظيَّةَ نزار التي كانت ـ وفق ادِّعائه ـ تحمل ابْن الإمام المغصوبة إمامته.

تعاطُف البسطاء مع قضية نزار الذي اختفى في ظروف غامضة، وقيل إن بدر الجمالي قتله، كان المحرِّك الأول ليستمعوا للصبَّاح الذي يُعتبر المؤسِّس الأول للنزارية.

ـ الاغتيال:

كانت فكرة الاغتيال غير بعيدة عن ثقافة الشرق العَرَبِيّ الإِسْلامي، فالخلفاء الراشدون قضى ثلاثة منهم نَحبَهم اغتيالاً، وحتى خامسهم ـ عمر بن عبد العزيز ـ مات بالسُّمّ في طعامه. والتاريخ بعد ذلك شهد الكثير من عمليات الاغتيال والقتل الفردي والجماعي، العشوائي والمدبَّر. إلا أن طائفة الحَشَّاشِين كانت أول فرقة منظمة تتخذ الاغتيال منهجًا لها، حتى إن لفظ «Assassin» ببعض اللغات الأُورُوبِّيَّة يعني «القاتل»، ويُطلَق بالذات على منفِّذ عمليات الاغتيال، هو لفظ مأخوذ من كلمة «حَشَّاشِين» نقله الأُورُوبِّيُّون إلى لغاتهم، بعد احتكاكهم بالحَشَّاشِين خلال الحروب الصَّلِيبِيَّة في الشرق.

وسبب بروز وشهرة تلك الحركة هو ما أثاروه في الشرق من رعب شديد وتحطيم للأمن العام، بالذات في إيران، حتى إن الرجل إذا تأخر ساعات قليلة عن موعد عودته إلى البيت كان أهل بيته يعدُّونه من الموتى، وكان مجرَّد الاعتراض البسيط على فكرهم أمرًا عاقبته القتل العلني، بالذات أيام الجُمَع والأعياد، إذ كانوا يتعمدون تنفيذ الاغتيال نهارًا جهارًا لتحقيق الأثر النفسي المنشود لدى الناس.

إذن فقد كان الحَشَّاشُون أول تنظيم سرِّيٍّ للقتل المنظم، بدأوا أولاً بقتل معارضيهم من رجال الدين والسِّيَاسِيّين والمفكرين، ثم اضطرتهم الحاجة المالية أحيانًا إلى طلب الفدية المالية من الأثرياء وإلاَّ قتلوهم، وانْتهى بهم الأمر إلى تحولهم خلال العصرين الأيوبي والمملوكي إلى قَتَلَة مأجورين يستخدمهم الحُكَّام في تصفية خصومهم.

ـ المخدوعون:

قسم الحَشَّاشُون أنفسهم طبقات وفئات، منهم الإمام والدُّعاة الكبار والدعاة الصغار والأتباع، إلا أن من مارسوا القتل كانوا فئة «الفداوية» الذين كانوا عبارة عن جيش من محترفي التنكُّر، والتحدُّث بلغات مختلفة، والتعايش في مجتمعات عدَّة والاندماج فيها، فضلاً عن الوظيفة الأساسية: القتل، إضافة إلى التجسس ونصب الكمائن. أي أنهم كانوا بمثابة ما يشبه الآن أجهزة المخابرات وفرق الصاعقة. كان الفداوي يمارس عمله مؤمنًا بأنه إنما يُرضِي الإمام (ظِلَّ اللهِ على الأرض) وكانت أقصى فرحة للفداوي وأسرته عندما يُقتَل بعد تنفيذه مهمة ناجحة. ورغم المذابح والإعدامات المنفذة بحق آلاف الفداوية ـ والحَشَّاشِين بشكل عامٍّ ـ كانوا يتمسكون بمبدأهم، ويهتفون لإمامهم وهم يُقَطَّعون بالسيوف أو يُرجَمون بالحجارة أو يُحرَقون بالنار، ما يُظهِر حجم التأثير النفسي الرهيب للدعاة على أتباعهم.

ـ الْمُخادعون:

وإن التمسنا في الجهل والافتتان وضعف العقل أعذارًا للفداوي، فليس الأمر كذلك للدُّعَاة والأئمة الذين كانوا يمارسون هذا النوع من الخداع المنظم للبسطاء؛ ويلقونهم إلى التهلُكة وقودًا لأهدافهم في السيطرة والحكم. كان نوعًا من الشهوة للسلطة بلغ حَدًّا فاق شهوة المال، حتى إن الإمام أو الدَّاعِية من هؤلاء كان يعيش في زهد مبالَغ فيه، فقط لينال الحظوة في أعين رجاله فيزدادوا افتتانا به (نفس ما يحدث الآن من زعماء بعض الجماعات الإرهابية). كانوا أيضًا يختلقون بعض المعجزات باستخدام طرق الخداع البصري والشعوذة ليؤكدوا أنهم تجسيد الله على الأرض، حتى إنه يقال إن حسن الصبَّاح كان قد أنشأ بستانًا داخل قلعته زوَّده بالشلاَّلات الصناعية والجواري الحسان والغلمان المليحين والفاكهة والأزهار، وادَّعى أنه جزء من جنَّة الله أعطاه الله عزَّ وجلَّ له ليُدخِل فيها من يشاء من أتباعه الْمُخلِصين! (وهو ما اتضح بعد ذلك أنه من الأكاذيب الشائعة حول «الحشاشين» وكان مصدره الرحالة الإيطالي ماركو بولو).

نعم، كان الأئمة يعلمون أنهم على باطل، ولكنها شهوة النفوذ التي بلغت بهم الجرأة لأجلها أن أحدثوا في الدين ما ليس فيه، من تكفير لمن خالفهم وإهدار لدمه، وتحويل القتل إلى عبادة والغدر إلى تقرب من اللـه.

ـ إفساد الدين:

لم يكتفوا فقط بخداع الأتباع، بل تجاوزوا كل الحدود فأصبحت العقيدة لعبة أئمتهم وشيوخهم. فحسن الصبَّاح بلغ حد ادِّعاء ما يشبه النُّبُوَّة، وربما حلول روح اللـه فيه، وشيخهم الرابع «الحسن الثاني» أعلن ذات يوم، في شهر رمضان، قيام القيامة وتعطيل العمل بالشريعة، فأباح الإفطار ومنع الصلاة وسمح بالزنا حتى مع المحارم، وغيَّر بعضهم وجهة الحج من زيارة مكة إلى زيارة الإمام، فضلاً عن عشرات الأفكار المصنفة دينيًا باعتبارها «فاسدة» ويُعتبر أقلُّها خروجا صريحًا عن الإِسْلام. لم يعمل منهم بالشريعة الصحيحة إلا إمام واحد، كانت أمه سُنِّيَّة فأثرت عليه فمنع القتل والمحرَّمات، ووصل العلاقات مع ملوك العالم الإِسْلامي، ولكن بعد موته سرعان ما انقلب الحَشَّاشُون إلى ما كانوا عليه من فساد. إحداثهم تلك المفاسد في الدين استفزَّ الكثير من المفكرين الغيورين على الشريعة، كالإمام أبي حامد الغزالي الذي هاجمهم في كتابه «فضائح الْبَاطِنِيَّة».

ـ نقمة على الحَضَارَة العَرَبِيّة الإِسْلاميّة:

لم يتوقف فساد تلك الحركة على القتل وتحريف الدين فحسب، بل إنهم خلال فترة الحملات الصَّلِيبِيَّة ـ أخطر فترات التاريخ آنذاك ـ كانوا لا يقلُّون خطرًا على الدول الإِسْلاميَّة من الغُزَاة. فالملاحِظ لعدد ضحاياهم خلال تلك الفترة يكتشف أنهم نادرًا ما وجَّهوا خناجرهم إلى الصليبيين، وكانت معظم اغتيالاتهم مركَّزة على قادة الْجِهَاد العَرَبِيّ الإِسْلامي، فقد قتلوا القائد مودود ـ أحد المجاهدين ضِدّ الصَّلِيبِيّين في الشام ـ وقتلوا القائد التركي آق سنقر الذي كان مصدر رعب للجيوش الأُورُوبِّيَّة، وسعوا أكثر من مرة لقتل صلاح الدين الأيوبي، كما أنهم اغتالوا اثنين من الخلفاء العَبَّاسِيِّين في بغداد، فضلاً عن علاقتهم المريبة بالمنظمات العسكرية الصَّلِيبِيَّة كفرقة «فرسان الهيكل»، والمراسلات

والتحالفات السرية بينهم وبين قادة الجيوش الصَّلِيبِيَّة. كل هذا كان يشي بأن هؤلاء الذين يدَّعون الْجِهَاد للدَّعوة لا تزيد حالهم على أنهم «مرتزِقة»، يبيعون أنفسهم ودينهم لمن يضمن لهم السطوة والحكم.

ـ النهاية:

كان من الطبيعي أن تنتهي تلك الزمرة من تجار الدين والدم نهاية دامية، وقد كان هذا على يد جيش هولاكو الذي سوَّى بقلاعهم الأرض وقتل أغلبهم بعد أن كانوا قد طمعوا في محالفته (!).

كانت هذه بداية النهاية لهم، فكَقُوَّة سياسية انْتهى وجودهم بدمارهم على يد المغول، وأنشأ هؤلاء الآخَرون دولة المغول في فارس، ولكن بقيت بقية للحَشَّاشِين في الشام، تحديدًا شمال سوريا، حيث تَحَوَّلوا إلى فرقة من القتلة المأجورين يستخدمهم الملوك ورجال السِّيَاسَة لتصفية أعدائهم، كالظاهر بيبرس الذي استطاع السيطرة عليهم وتوجيههم لاغتيال قادة بقايا الإمارات الصَّلِيبِيَّة في الشام (أي أنهم حتى عندما حاربوا الصَّلِيبِيّين كان لغرض المال!)، وكالسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي قال الرحالة ابن بطوطة عن الفداوية إنهم سيفه على أعدائه. وفي النهاية اندثروا وتفككوا وذابوا في الشعوب المجاورة، ولم تبقَ منهم إلا إمامة رمزية تتبعها طائفة كبيرة العدد في الهند وباكستان، وأشهر أئمتهم في العصر الحديث الأمير كريم أغا خان، صاحب مؤسسة أغا خان الشهيرة بتأسيس الأعمال الخيرية والاجتماعية والثقافية (وهي التي أسست حديقة الأزهر في القاهرة).

هكذا إذن جاءت وعاشت وذهبت حركة الحَشَّاشِين، كمثال هو الأقوى في التاريخ الإِسْلامي للذين فجَّروا أنهار الدم لخدمة أغراضهم الدنيوية، ومسحوا الدماء عن أيديهم على عتبات الإله!

وبالمعاصرة للحَشَّاشِين، بل وبعد ذهابهم، كانت حركة موازية لا تقلُّ عنفًا وتآمرًا ولعبًا بالدين.. حركة حَمَلة الصليب، وجاءت إلى الشرق بدعوى نصرة المسيح.. وإن كانت في الصدور مكنونات أخرى...

مصادر المعلومات:

1. الحشيشية: برنارد لويس ـ د/ سهيل زكار.
2. البداية والنهاية: ابن كثير.
3. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
4. تاريخ المذاهب الإِسْلاميَّة: محمد أبو زهرة.
5. شيخ الجبل حسن الصباح: محمد ناصح مؤيد العظم.
6. الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة: د/ محمد عبد الله المقدم.
7. الجمعيات السرية: نورمان ماكنزي.
8. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
9. أطلس التاريخ العَرَبِيّ الإِسْلامي: د/ شوقي أبو خليل.
10. الفرق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
11. عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
12. تاريخ الفَاطِمِيّين: د/ محمد سهيل طقوش.
13. بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.
14. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
15. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة.
16. أعجب الرحلات في التاريخ: أنيس منصور.

هوامش الجزء الرابع

الهامش الأول: حسن الصبّاح:

حسن الصبَّاح.. مؤسس حركة الحَشَّاشِين.

وُلِدَ تقريبًا سنة ١٠٣٧م في مدينة الرَّيِّ بالعراق. نشأ على المذهب الشِّيعِيّ وتَعَلَّم الفلسفة والكلام ثم سافر إلى مصر ليقدِّم الولاء للخَلِيفَة المستنصر (إمام الشِّيعَة الإِسْمَاعِيليَّة) وقرّبه الخَلِيفَة منه لشدة إعجابه بذكائه الحادِّ وعِلْمِه الْمَذْهَبِيِّ الغزير. كان من مؤيِّدي نزار (الابن الأكبر للخَلِيفَة) في صراع ولاية العهد، ما أدَّى إلى أن قام الوزير بدر الجمالي (حليف المستعلي) بحبس حسن الصبَّاح الذي استطاع الهروب من سجنه إلى إيران، حيث بدأ دعوته لنصرة الإمام المظلوم نزار، ورحلته في تجنيد الأعوان والأتباع محتلاًّ بهم عددًا من القلاع في جبال فارس، حيث بدأوا عهدًا من الرعب والدم للعرب والْمُسْلِمِينَ في الشرق.

استطاع الصبَّاح بالفعل تكوين جبهة قوية من المؤيدين والأتباع، واستغلَّ علمه بالمذاهب والكلام والفلسفة مع جهلهم، وكذلك مهارته في إتيان ألاعيب الخداع البصري وافتعال المعجزات والخوارق، فبهر من اتَّبعوه وفُتِنوا به وباتخاذه مظاهر الورع والتقوى والتشدد، حتى تفانوا في طاعته.

كان أتباعه يؤمنون بأنه إمام يُوحَى إليه فكانت طاعتهم له عمياء، إلى حدِّ أنهم كانوا يقتلون أنفسهم بأمره إذا أراد استعراض ولائهم أمام خصومه. وكانت حياته شديدة التقشف والزهد والصرامة ما أكسبه مظهر الولي العابد المجاهد في سبيل اللـه، ودعّم دعواه بين مريديه الذين بلغ عددهم سبعين ألف إنسان!

توُفِّي حسن الصبَّاح في قلعة «آلموت» مركز دعوته ومقر قيادته، سنة ١١٢٤م، ولم يترك ولدًا، إذ كان قد قتل ولديه خلال حكمه، الأول لشربه الخمر والثاني لتآمره عليه.

الهامش الثاني: الشِّيعَة النِّزَارِيَّة:

الشِّيعَة الإِسْمَاعِيلِيَّة النِّزَارِيَّة.

بدأ الأمر بظهور طائفة الشِّيعَة الإِسْمَاعِيلِيَّة، وهي فئة منشقَّة عن الاثني عشرية، فبينما آمن الآخَرون بإمامة موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصَّادِق، آمن البعض بإمامة إِسْمَاعِيل بن جعفر الصَّادِق، وكوَّنوا مذهب «الشِّيعَة الإِسْمَاعِيلِيَّة» الذي أصبح المذهب الرسمي للفَاطِمِيّين منذ نشأتهم في غرب إفريقيا، وخلال دولتهم في مصر والشام، حتى سقوطهم على يد صلاح الدين الأيوبي.

وخلال عهد الخَلِيفَة الفَاطِمِيّ المستنصر بالله، نشأ نزاع سياسي بين الشِّيعَة الإِسْمَاعِيلِيَّة بسبب ولاية العهد، فلأن نقل الإمامة من السَّلَف إلى الْخَلَف عملية ذات قداسة خاصَّة لدى الشِّيعَة، فقد تَمَسَّكَت فئة كبيرة منهم بولاية «نزار بن المستنصر»، بينما ظهرت دعاوى لتولية شقيقه الأصغر «المستعلي بن المستنصر» فرفض مؤيدو نزار تلك الدعوى باعتبارها مخالفة للمذهب الشِّيعِيّ الذي ينصُّ على انتقال الإمامة من الأب إلى الابْن الأكبر فقط، ولم يعترفوا بولاية المستعلي الذي كان حليفًا لكبير وزراء مصر (بدر الجمالي) وانشقُّوا بزعامة كبيرهم حسن الصبَّاح، وتَسَمَّوا بـ«الإِسْمَاعِيلِيَّة النِّزَارِيَّة» وبدأوا نشر دعوتهم من جبال إيران وشمال سوريا.

كذلك تَسَمَّوا بـ«الْبَاطِنِيَّة» لأنهم زعموا أن لكل ظاهر باطنًا، وقاموا بتحريف الكثير من تعاليم القرآن ـ خصوصًا المتعلقة بالصلاة والعبادات ـ بدعوى أنهم يأخذون باطنها المستتر لا ظاهرها الذي يأخذ به ـ على حدِّ قولهم ـ عوامُّ الناس والجُهَّال. والسبب الآخر للتسمية هو اتسام دعوتهم بالسِّرِّيَّة والاستتار.

دماء على عتبات الإله ـ الجزء الخامس

«الْمُسْلِمُون الوثنيون الهراطقة يحتلون الأرض الْمُقَدَّسَة، يدنِّسون قبر المسيح ويستعبدون الْمَسِيحِيِّينَ، يذبحون الرجال والغلمان ويسترقُّون النساء ويهتكون أعراضهن، يجعلون من الكنائس زرائب للبهائم ويَوقِفُون الصلوات ويمزِّقون الكتاب المقدس».

كان هذا مجرَّد نموذج لمحتويات خطب رجال الكَنِيسَة الكَاثُولِيكِيَّة في أُورُوبَّا، وهم يحفزون الشعب على الانضمام إلى الحملات الْمُقَدَّسَة، وكان من الطبيعي أن تجد رسوماتٍ معروضة على الناس تصوِّر مسلمًا يذبح مَسِيحِيًّا، أو فارسًا عَرَبِيًّا يطأ بسنابك جواده قبر المسيح... هكذا كانت بداية الحرب الشعواء المسماة ـ زورًا ـ بالصَّلِيبِيَّة! من أين بدأ الأمر؟ ومتى راودت أوربان الثاني فكرة «الحرب الْمُقَدَّسَة»؟

الحقيقة أن أغلب الآراء تقول إن الذريعة التي اتَّخَذَها البابا كانت استغاثة إِمْبِرَاطُور بِيزَنْطَة به، عندما هُزِمَ في معركة «منزكرت» من السَّلاَجِقَة الأتراك الطامعين في ممتلكات بِيزَنْطَة. ولكن البابا كَاثُولِيكِيّ والبِيزَنْطِيِّينَ على مذهب الـ«روم أرثوذكس»، فأي مصلحة تأتي من حشد الجيوش لمساعدة أتباع مذهب آخر؟

ـ دوافع البابا:

كان البابا ينظر إلى الأمر كفرصة لتوحيد قيادات أُورُوبَّا تحت مظلة هدف واحد، لعلَّ هذا يُخْرِج المنطقة من حالة الغليان والفوضى التي كانت تعيشها آنذاك*، كما كان يطمع في بسط يد كنيسته الكَاثُولِيكِيَّة على بِيزَنْطَة وما حولها، لينهي بذلك الوجود الأرثوذكسي المنافس الذي طالما اعتبره بابوات روما انشقاقًا عن وحدة الكَنِيسَة، وكانوا يتحينون الفرص لفرض مذهبهم على الروم، والدليل على ذلك أن نسبة لا بأس بها من حملات دعم بِيزَنْطَة ضِدَّ أعدائها جاءت بعد وعود من البِيزَنْطِيِّينَ بالدخول في المذهب الكَاثُولِيكِيّ وبالتالي في طاعة بابواته. أيضًا كان البابا يرغب من خلال قيادته الروحية لتلك الحملة في

توطيد الجانب الدنيوي من زعامته. فطالما كان صراعٌ بين الكَنِيسَة والملوك الرافضين لأي سلطة دنيوية تفوق سلطاتهم، بينما كان البابوات المتتابعون مُصِرِّين على ازدواج سلطة البابا ـ دِينِيَّة ودنيوية ـ بصفته الوريث الطبيعي لسلطة إِمْبِرَاطُور الرُّومَان. وكان البابا يعلم أن خروج حملة عسكرية لغزو الشرق هو أمر يسيل له لعاب ملوك أُورُوبَّا، فبادر بإعلانها بشكل يحمل الصبغة الدِّينِيَّة ليفرض عليهم وصايته رغمًا عنهم جميعًا. والدليل القوي على تعلق الأمر بالسلطة أكثر من اتصاله بالدين، هو أن بعض البابوات التالين لأوربان أعلنوا حروبًا صليبية داخلية ضِدَّ من يمرق عن طاعتهم من الملوك، فكانوا يحشدون الجيوش لتأديبه باسم الصليب، ما يعني أن الصفة الصَّلِيبِيَّة للحروب كانت تعني أنها موجهة لنصرة البابا لا لنصرة الدين نفسه، بصرف النظر عن العدوِّ الموجَّهة إليه.

الأمر الذي لا يقلُّ أهمية، هو أن الباباوات طالما أرهقتهم صراعات الملوك والأمراء وما ينتج عنها من تفكك وحدة العالم الكَاثُولِيكِيّ، ما يعني بالتبعية تفكُّك نطاق سلطة البابا وانشغال الناس بالشؤون الدنيوية كالحرب والنزاعات، عن الشؤون الدِّينِيَّة كالصلوات والنذور وطلبات الغفران، ما كان من شأنه تقليص مكانة سلطة الكَنِيسَة في ضمائرهم. لهذا جاءت الدعوة للحملة الْمُقَدَّسَة (لم تكُن قد سُميت بالصَّلِيبِيَّة بعدُ) بمثابة فرصة لنقل صراع الأمراء خارج أُورُوبَّا، وتفريغها من القوى المشاغبة المقلقة للاستقرار البابوي.

هذا عن البابا، أما الملوك والأمراء والإقطاعيون، فقد كانت لهم أسبابهم كذلك.

ـ دوافع السادة:

السادة كانت لهم ـ بدورهم ـ أسبابهم لترك بلادهم والانتقال إلى بلاد غريبة عنهم انصياعًا لنداء البابا، فتلك الفترة التي شهدت إعادة تشكيل ورسم حدود أُورُوبَّا، وقعت فيها عشرات النزاعات بين القادة ـ بالذات على حدود مناطق النفوذ ـ بالذات بين الدول الثلاثة الكبرى: فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا. وكان التداخل العائلي بين الأسر الحاكمة سببًا في فوضى غريبة، أبسط مثال لها أنه ـ وفقًا للقوانين ـ كان السيد الإقطاعي يتبع الملك، وكان من المألوف آنذاك أن يمتلك أحد الملوك إقطاعًا تحت سلطة ملك آخر، ما يعني أن له صفتين

متعارضتين، فبصفته ملكًا فهو يساوي أي ملك أُورُوبِّيّ من حيث السلطة القانونية، وبصفته إقطاعيًا في دولة أخرى فهو تابع لملك تلك الدَّوْلَة، ما أحدث فوضى عارمة أدَّت إلى نشوب نزاعات عنيفة بين الملوك. كذلك كانت المنافسة بين ملوك الدول الثلاث المذكورة على أشدِّها على لقب «إمْبِرَاطُور الإمْبِرَاطُورِيَّة الرُّومَانِيَّة الْمُقَدَّسَة» الذي كان يتم انتخابه من بين ملوك أُورُوبَّا، في محاولة من الكَنِيسَة لإحياء المجد الرُّومَانِيّ، فكان الملوك يسعَون لتحقيق الإنجازات السِّيَاسِيَّة والعسكرية القوية لنَيل اللَّقب الذي كان يُعطِي صاحبَه سلطةً على باقي الملوك، ولم يكُن من عمل آنذاك ـ أعظم من محاربة الْمُسْلِمِينَ وطردهم من الأرض الْمُقَدَّسَة.

الأمر الطبيعي أيضًا كان سعي الملوك ـ وهو أمر بديهي ـ لإقامة مستعمرات لهم في الشرق الثري بالموارد، وكان هذا يمثل حلاً لكل ملك تعاني دولته ضائقةً ماليَّةً، ولكن السبب الأكثر قوة كان رغبة بعضهم في إقامة ممالك كَاثُولِيكِيَّة شبه مستقلة في الشرق يُنَصِّبُون عليها ملوكًا من أسرهم أو أسر حلفائهم، بحيث تكثر الأصوات المؤيِّدة لهم في المحافل الكَاثُولِيكِيَّة، ما يعطيهم سطوة عاتية أمام منافسيهم في تلك المحافل.

هذا عن أسباب الملوك، أما الإقطاعيُّون فكان محرِّكهم الأساسي هو الرغبة في اكتساب إقطاعيات جديدة لهم، بالذات من عانَى منهم الإفلاس، بل وربما أقاموا ممالك كاملة يكونون هم فيها الْمَتْبُوعِين لا التابعين. هؤلاء وجدوا التأييد من الملوك سالفي الذكر الراغبين في اكتساب أصوات مؤيِّدة لهم في المجالس والمؤتمرات الدولية، وتشكلت منهم نواة أولى الأسر الحاكمة في الإمارات الصَّلِيبِيَّة في الشرق.

بقيت الجمهوريات الإيطالية، وهي أنظمة كانت ترأسها كبريات الأسر المشتغلة بالتجارة، تلك الجمهوريات كانت التجارة عقيدتها فكان تجارها يقولون: «نحن تجار أولاً ثم مسيحيُّون ثانيًا»، ردًا على لوم البابا لهم لمخالفتهم أمره بمقاطعة الْمُسْلِمِينَ تجاريًا. سادة هذه الدول كان لهم ما يشبه الميليشيات الخاصَّة التي كانت مهمتها فتح وتأمين أسواق جديدة لمدنهم، بالذات على ساحل المتوسط. فكانت إذن الداعم المالي والتسليحي الأكبر

للحملات الصَّلِيبِيَّة، مقابل وعود بإعطائهم حقوق احتكار التجارة في أسواق الشرق وكذلك منحهم امتيازات تجارية كبيرة على غيرهم من التُّجَّار.

ـ عامة الشعب:

عندما أطلق البابا أوربان الثاني نداءه من كليرمون، كان يقصد توجيهه للسادة فحسب، دون عامَّة الشعب. بل كان يخشى انضمام العوامِّ إلى الحملات ما يعني إفقار الأرض إلى مزارعيها. ما توقعه وخشيه البابا حدث، ففور سماع ندائه انطلقت جحافل الشعوب الأُورُوبِّيَّة كلٌّ بأبنائه ونسائه ومواشيه الهزيلة، في مسيرة طويلة قطعت أُورُوبَّا من الغرب إلى الشرق متجهة إلى بِيزَنْطَة، لتكون نقطة انطلاق نحو الشام. ذلك الجيش الشعبي المسلَّح بأدوات الزراعة أحدث واحدة من أكبر حالات الفوضى والتزعزع الأمنى في أُورُوبَّا، فكانوا كُلَّما مرُّوا ببلد نهبوه وسلبوا أهله وأحدثوا فيه الدمار، حتى اضطُرَّ ملوك تلك المناطق إلى إرسال الفرسان لتأديب وطرد هؤلاء الغزاة، ووقع في صفوف هؤلاء العامة قتل عنيف من أهل المدن التي اعتدوا عليها. ثم بعد ذلك وصلت بقاياهم إلى بِيزَنْطَة فأحدثوا فيها ما أحدثوا في مناطق مرورهم من تدمير وتخريب وسلب، ما اضطَرَّ الإِمْبِرَاطُور البِيزَنْطِيّ إلى إرسالهم إلى آسيا الصغرى، ليتخلص منهم بأن يضرب بهم أعداءه السَّلاَجِقَة الذين قضوا على معظم أفراد تلك الحملة التي خرجت من بلادها بتعداد عشرين ألف فرد، ولم يتبقَ منها سوى ثلاثة آلاف فحسب أنهكتهم المسافة!

سلوك أفراد تلك «الحملة الشعبية» يكشف الدوافع الدنيوية التي أخفاها أفرادها تحت ادِّعاءاتهم الخروج لنصرة الرب، فالمحرِّك الوحيد لهم كان رغبتهم في الخروج من دائرة الفقر المغلقة عليهم، ولو كان من سبب آخر فهو السعي للتحرر من نير «القنانة» والتبعية الظالمة للسيد الإقطاعي. أما الدافع الدِّينِيّ فقد كان مختنقًا تحت نداء المال والطعام والمكاسب الدنيوية.

ـ الجرائم:

مجرَّد إلصاق رمز ديني له ثقله كالصليب رمز الفداء في الـْمَسِيحِيَّة، بالحرب من أجل المال والسلطة، هو جريمة كبرى! ولهذا فإن الرأي الراجح بين المؤرخين يَعتبر وصف تلك الحملات بـ«الصَّلِيبِيَّة» أمرًا ينافي العدل والمنطق العلمي، ويعتبره مجرَّد «خطأ شاع إلى حَدٍّ صعوبة تداركه». إذن فالجريمة بدأت باتخاذ ستار الدين قناعًا لأهداف الدنيا.

أما عن الجرائم المادية من قتل وتدمير فلم يكُن أكثرُ منها، والـْمُلاحَظ أنه بينما كان الوجود العَرَبِيّ في أُورُوبَّا مرتبطًا بالحَضَارَة والبناء، كان الوجود الأُورُوبِّيّ في الشرق مرتبطًا بالمذابح والمجازر العنيفة. ففي القدس وصف المؤرخون الأُورُوبِّيُّون المذابح بشكل تفصيلي، فقالوا إن الدماء بلغت منتصف قوائم خيول الفرسان، وإن الغزاة جمعوا أهل الـْمَدِينَة ـ من كل الأديان والمذاهب ـ في ساحات المساجد وأعملوا فيهم القتل، وحبسوا الـْيَهُود في معبدهم وأحرقوه عليهم، بينما حوَّلوا المسجد الأقصى إلى إسطبل للخيل. وفي مدن الشام كانت الـْمَدِينَة المفتوحة تباح للجنود ليسلبوها ويهتكوا نساءها ويُذَبِّحوا أهلها كما يشاؤون، بل إن ثمة مشاهدات لمؤرخين أُورُوبِّيِّين تثبت ممارسة بعض الفرسان أكل **لحوم البشر!**

أما من ناحية الهوية فقد تمت عملية طمس منظمة للهوية العَرَبِيَّة الإِسْلامِيَّة من خلال تحويل بعض المساجد إلى كنائس، وتعميم النمط الأُورُوبِّيّ. وحتى الكنائس الشرقية لم تَسْلَم، فقد سُلِبَت من رجال الدين الأرثوذكس سلطاتهم الدِّينِيَّة على رعايا كنائسهم، وحوصروا بالطرد والحبس والمصادرة، في محاولة لفرض الكثلكة عليهم!

حتى الحلفاء البِيزَنْطِيُّونَ لم يسلموا من الأذى، فسرعان ما سقطت أقنعة الصداقة والنصرة للإخْوة في الدين وبدت الأطماع الغربية في ممتلكات بِيزَنْطَة، وتعرضت تلك الأخيرة لسلسلة من عمليات السلب والنهب والاستيلاء على المدن والحصون التابعة لها، بل إن إحدى الحملات الصَّلِيبِيَّة وُجِهَت بأكملها لإسقاط الأسرة البِيزَنْطِيَّة الحاكمة، وإقامة أسرة كَاثُولِيكِيَّة موالية لروما!

هذه نبذة بسيطة عن الجرائم الأُورُوبِّيَّة التي تم ارتكابها باسم نصرة المسيح الذي قيل في الكتاب المقدس على لسانه: «أحِبُّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم»! تلك الجرائم التي تكفي أقلُّها شأنًا لمحو أي ارتباط بين الدين وخروج المحاربين الأُورُوبِّيِّين إلى الشرق.

ـ كذبة كبيرة ساذجة:

إن وصف تلك السلسلة من الحروب والحملات بالصَّلِيبِيَّة الدِّينِيَّة يُعتبر ـ بحقٍّ ـ أكبر كذبة في حقِّ الدين، وكذلك أكثر أنواع وصور الكذب سذاجة. فنظرة واحدة إلى الممارسات الصَّلِيبِيَّة سالفة الذكر تكفي لإدراك عمق الكذبة. كذلك بدا الكذب وخداع النفس والآخرين في بعض تصرفات الأمراء والملوك وقادة الجيوش الأُورُوبِّيِّين، كتآمر بعضهم على بعض في أثناء الحرب ـ كما حدث بمحاولة فيليب أغسطس التخلص من ريتشارد قلب الأسد بالاستعانة بالحَشَّاشِين ـ أو كدخول بعضهم في معارك جانبية مع بعض متخذين فيها حلفاءَ لهم من العرب! أو حتى في تعاملهم مع أمور على مستوى أعلى، كسعيهم لقلب نظام حكم بِيزَنْطَة وإقامة نظام موالٍ لهم، وتركيز معظم غاراتهم على مناطق لا عَلاَقة لها بالقدس ـ وجهتهم المعلنة ـ فقط لأن تلك المناطق أكثر ثراء. والفضيحة الكُبرى بدت عندما قرر ملك عاقل شريف شديد الولع بالثقافة العَرَبِيَّة، هو فريدريك الثاني ملك ألمانيا وصقلية، أن يحقن الدماء. أبرم معاهدة مع السلطان الكامل الأيوبي ـ سلطان مصر ـ حصل الصَّلِيبِيُّون بمقتضاها على الجزء الْمَسِيحِي من القدس. فريدريك حصل بالضبط على المطلب الْمُعلَن للبابا والملوك الأُورُوبِّيِّين، ولكن هؤلاء لم يرضوا عنه فطرده البابا من رحمة الكَنِيسَة (الحرمان الكَنَسِيّ) وجرّد عليه حملة صليبية داخلية وعلى أسرته (آل هوهنشتاوفن) لأنه ـ على حد قوله ـ أقام سلامًا مع الكُفَّار، في إظهار واضح لحقيقة أن ما ناله فريدريك الثاني ـ بالسلام ـ لم يكُن الهدف الحقيقي لا للبابا ولا لملوك أُورُوبَّا!

هكذا إذن كانت الحملات الصَّلِيبِيَّة من حيث الفكر والأهداف الحقيقية.. لتستحق الانضمام عن جدارة إلى قائمة أشهر الحروب التي شُنَّت وارتُكِبَت فظائعها باسم الدين ورضا الإله البريء من هذا النوع من حقارات البشر!

قفزة واسعة أخرى نقفزها عبر القرون.. لنعطي أنفسنا فرصة لتعرُّف نوع جديد من سفك الدم وإزهاق الأرواح باسم الدين.. عن حرب تخوضها جيوش سرية تحركها قيادات خفية.. اختلف الكثيرون في تفسيراتها وتحليلاتها وإن اتَّفَقوا في تسميتها «الإرهاب»!

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. العلاقات الإقليمية والحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ كمال بن مارس.
3. صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة: د/ محمد مؤنس عوض.
4. الاستيطان الصَّلِيبِيّ في فلسْطِين: يوشع براور.
5. أسواق الشام في عصر الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ عبد الحافظ عبد الخالق البنا.
6. عالم الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
7. عصر الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ محمد مؤنس عوض.
8. مصر في العصور الوسطى: د/ محمود الحويري.
9. الصَّلِيبِيُّون في فلسْطِين: د/ سامية عامر.
10. عالم الصَّلِيبِيّين: يوشع براور.
11. في تاريخ الأيوبيين والمماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
12. الحروب الصَّلِيبِيَّة ـ السِّيَاسَة، المياه، العقيدة: د/ محمد مؤنس عوض.
13. العصور الوسطى الباكرة: نورمان كانتور.
14. حَضَارَة أُورُوبَّا العصور الوسطى: موريس كين.
15. مصر والبندقية: د/ ناجلا محمد عبد النبي.
16. الْمُسْلِمُون وأُورُوبَّا: د/ قاسم عبده قاسم.
17. عصر سلاطين المماليك: د/ قاسم عبده قاسم.
18. ماهية الحروب الصَّلِيبِيَّة: د/ قاسم عبده قاسم.
19. بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

20. تاريخ الشعوب الإِسْلاميَّة: كارل بروكلمان.
21. شمس الله تشرق على أرض العرب: زيجريد هونكه.
22. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.
23. موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.
24. تاريخ السَّلاَجِقَة في بلاد الشام: د/ محمد سهيل طقوش.
25. تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى: د/ محمد سهيل طقوش.
26. تاريخ المماليك: د/ محمد سهيل طقوش.
27. تاريخ الأيوبيين: د/ محمد سهيل طقوش.
28. تاريخ الزنكيين: د/ محمد سهيل طقوش.
29. تاريخ الفَاطِمِيّين: د/ محمد سهيل طقوش.
30. الحروب الصَّلِيبِيَّة كما رآها العرب: أمين معلوف.
31. الله ليس كذلك: زيجريد هونكه.

هامش الجزء الخامس

أُورُوبًا عشية إعلان الحرب الْمُقَدَّسَة

نقطة انطلاق الحملات والحروب الصَّلِيبِيَّة كانت تلك الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م في «كليرمون» بجنوب فرنسا، حيث أعلن فتح باب «الْجِهَاد المقدس» لطرد الْمُسْلِمِينَ «الكُفَّار الهراطقة الوثنيين» ـ على حَد قول الصَّلِيبِيّين ـ من فلسْطِين الأرض الْمُقَدَّسَة، واستعادة قبر المسيح منهم وتأسيس مملكة أورشليم الْمُقَدَّسَة.

خطبة البابا جاءت في وقت كانت أُورُوبًا فيه تشتعل بالاضطرابات. فانهيار الإِمْبِرَاطُورِيَّة الرُّومَانِيَّة في بدايات العصور الوسطى الباكرة، وتفكُّكها، أنشأ قوَى

جديدة، مثل الملكيات في فرنسا وإنجلترا وألمانيا، والجمهوريات الإيطالية مثل بيزا والبندقية وفلورنسا، فضلاً عن ظهور سلطة الكَنِيسَة الكَاثُولِيكِيَّة في روما كوريث شرعي للسلطة العاتية لأباطرة الرُّومَان، هذا غير القوى الداخلية في كل دولة والممثَّلة في السادة الإقطاعيين. ساد بين كل تلك القوى صراع على السيطرة والنفوذ أدَّى إلى نشوب سلسلة من المعارك والمؤامرات حاول البابوات في روما منعها من خلال بعض المبادرات، كمبادرة «سلام الله» التي تمنع القتال في أيام معينة من السَّنة، وتُقِر أن تكون تحت يد البابا قوة عسكرية يستخدمها للفصل بين المتحاربين من سادات أُورُوبَّا. لنا أن نتخيل خطورة الوضع السِّيَاسِيّ الأُورُوبِّيّ من ملاحظة استمرار حالة الاشتعال في أُورُوبَّا منذ سقوط الدَّوْلَة الرُّومَانِيَّة وحتى خلال وبعد مبادرة أوربان الثاني.

هذا عن الطبقة الحاكمة، أما عن الشعب فقد كان مطحونًا بين المجاعات الضارية التي كانت ضرباتها تتوالى من حين إلى آخر، أو الأوبئة القاتلة كالطاعون، التي حصدت أرواح الآلاف، أو تحت طغيان السادة الإقطاعيين، حيث كان سكان القُرى بالذات يعيشون في حالة أسر دائم للأرض التي يعملون بها، في نظام يكون فيه المرء لا حرًّا ولا عبدًا هو نظام «الأقنان» ومفردها «قن». القن كان حرًّا من الناحية النظرية، لكنه عمليًا لا يستطيع ترك أرض سيد إقطاعيته إلا بإذنه، وكان يورِّث القنانة أَبْنَاءه، بمعنى أنهم بدورهم، جيلا وراء الآخر، لا يجوز لهم مغادرة أرض ساداتهم إلا بشروط عسيرة جدًّا. وكان السادة يعيشون من عَرَق هؤلاء الفلاَّحين بشكل كامل، بل كانوا أيضًا (الفلاحين) عرضة لفرض الضرائب من قِبَل ساداتهم لتمويل مستوى المعيشة المرتفع للإقطاعي، أو لتمويل حروبه ضِدَّ منافسيه وخصومه.

في وسط تلك الظروف القاسية ـ ونحن لم نذكر سوى القليل ـ جاءت دعوة البابا أوربان الثاني لتُحدِث هزة عنيفة داخل وخارج أُورُوبَّا خلال السنوات الطويلة التالية!

دماء على عتبات الإله ـ الختام

قد يحسن البعض الظن بنية بأمراء الإرهاب فيقول: «يحسبون أنفسهم على صواب». والحقيقة أن هذا القول إن صَحَّ على من انضمُّوا إلى تلك الجماعات من الجُهَّال والشباب الأغرار وضعاف العقول، فإنه لا يصحُّ على زعماء تلك التنظيمات، فهم إما عالم بالدين حاصل في على الشهادات العليا، فهو لا يُعذَر بجهله، وإما مدَّعٍ للعلم يتحدث بالطلاسم ليخفي جهله عن أتباعه، وهذا لا يمكننا افتراض حسن نيته! ولا يمكن ـ بأي حال من الأحوال ـ أن نصدقه حين يقول: «إنما فعلته مرضاة للـه».

ونحن لسنا هنا بصدد الحديث بالتفصيل عن التنظيمات الإرهابية في مصر* خلال تلك الفترة الدامية من تاريخها الحديث، فقط نحن نعرض للصورة العامة لأداء تلك التنظيمات عملها الإجرامي وأدلة نفي ادِّعائها المحاربة لأجل نصرة الدين.

ـ التكفير والتربة الخصبة:

المهمة الأولى لدُعاة التطرُّف كانت إقناع المراد تجنيدهم بصدق القضية وتكفير المجتمع، كمبرر لاستباحة دماء وأموال الناس. في ذلك الوقت (بداية الثمانينات) كانت مصر تربة خصبة لبذور التكفير. فالانفتاح وما صحبه من انقلاب في قيم ومعايير المجتمع وعجز نسبة ضخمة من الشباب عن مجاراتها، والسلام مع إِسْرَائِيل الذي أثار غضب فئة كبيرة من المتحمسين للقضية العَرَبِيَّة، كانا وترين أساسيَّين لعب عليهما هؤلاء الدعاة، فتوجهوا بدعواهم إلى الفئات المحبَطة المطحونة من الشباب غير المثقف: «هذا النظام الذي أدخل قيم المحسوبية والرشوة فحرمك حقَّك في الوظيفة المحترمة وأعطاها لابن فلان أو علان هو نظام كافر! وهذا المجتمع الذي سكت على هذا الظلم مجتمع كافر! والكافر دمه وماله حلال! لا تحزن على الوظيفة فمعنا ستكون مجاهدًا عظيمًا يشار إليه بالبَنَان، وقد تصبح أميرًا لجيش أو جَمَاعَة من المجاهدين». هنا يحقِّق الدَّاعِي نجاحين: الأول هو استغلال

طاقة سخط الشابِّ على مجتمعه واستعداده لتقبُّل فكرة أن مجتمعًا فعل به هذا هو مجتمع كافر، والثاني مداعبة استماتة الشابِّ أن يعوّض طموحه المفقود فيضع أمامه طموحًا مليئًا بالمسميات البرَّاقة مثل «بطل» و«مجاهد» و«أمير»... هنا تتحرك متلازمة الغضب وضعف الثقافة مع استعجال تحقيق الطموح ـ كسمة طبيعية في الشاب في أول عمره ـ فتنتج المادة الخام للإرهابي!

ـ تكفير.. استباحة.. إمارة.. وكفى:

الدليل القوي ـ حقًّا ـ على أن ما كان يهمُّ هؤلاء هو الحكم وكفى، هو غياب أي منهج بنائي أو إصلاحي لهم؛ كانوا يتخذون شعارات مطَّاطة عائمة مثل «الْجِهَاد حتى إسقاط حكم الطواغيت وإقامة دولة الإِسْلام» أو «الحكم بالشريعة الغَرَّاء»... لكن لم تكُن لديهم رؤية معلنة للدولة الإِسْلاميَّة المنشودة، لم يقدِّموا برنامجًا واحدًا محترمًا للتنظيم الاجتماعي المستقبلي في حالة توليهم الحكم. ما كان هو حالة تكفير عامٍّ لكل مَن عارضهم أو حتى اتخذ منهم موقفًا محايدًا، واستباحة لدماء وأموال المجتمع ككل بما تضمنه ذلك من عمليات سطو مسلح على تجار ومصارف وصاغة، وعمليات تفجير لا يمكن بأي حال من الأحوال توقُّع هوية ضحاياها، وتنظيم اغتيالات لشخصيات بعينها، كل هذا دون إجابة للسؤال المعلق «وماذا بعد؟»، ما يعني أن المسعى الأساسي كان «أن يحكموا هم» وبعد ذلك «يحلُّها ألف حلاَّل».

مؤهلات الحكم:

وكما لم يكُن لهم برنامجٌ مستقبليٌّ لم تكُن لديهم كوادر مؤهلة بحقٍّ للحكم، لا من الناحية المدنية البحتة ولا من الناحية الشرعية. فالمتأمِّل لأبرز أمراء تلك الجماعات يجد أغلبهم ممن قرأوا قشور الدين وبعض الفتاوى الْجِهَادية للفقيه ابن تيمية، وكان من الكتب المحببة لكثير كتاب «معالم في الطريق» للمفكر الإِخْوَاني سيد قطب، وكتاب «الفريضة الغائبة» للمتطرف محمد عبد السلام فرج، وهما كتابان بهما ما بهما من أفكار تكفير المجتمع واتهامه بالجاهلية والدعوة للثورة الدِّينِيَّة المسلحة، في مخالفة صارخة للمبدأ الشرعي الإسلامي

القاضي بعصمة دم ومال من قال «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللـهُ» وكذلك تحريم المساس بـ«أهل الذِّمَّة» من غير الْمُسْلِمِينَ ما داموا يعيشون في سلام في المجتمع الذي تعيش فيه أغلبية مسلمة. إذن فوفقًا للموروث الإسلامي نفسه لم يكُن منهم شخص مؤهَّل فعليًا لحكم الدَّوْلَة، خصوصًا مع تخلف شروط الإمامة عنهم، بالذات شرط «العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام» وشرط «الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح». فهم أولاً أساءوا التعامل مع فتاوى ابن تيمية واستعانوا بها في غير موضعها، وكذلك استعانوا بالكتابين المذكورين وما بهما من استباحة لأمور يصنفها الدين الإسلامي أنها قد «حرَّمها اللـه إلا بالحَقِّ»، ما ينفي عنهم صفة العلم، وثانيًا لم يظهر منهم أي رأي في سياسة الرعية ولا تدبير المصالح، بل كانت آراؤهم على طول الخط في «تكفير الرعية وتدمير المصالح!».

ولو حاولنا تقييمهم من منظور ديني إسلامي بتطبيق شروط «إمارة الاستيلاء» ـ أي الإمارة للمستولي عليها ـ لَمَا انطبقت عليهم أيضًا، لأن من شروطها «أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق»، بينما كانوا هم يعتمدون على السلب والسرقة في تحصيل الأموال، ومن شروطها أيضًا «أن يكون الأمير في حفظ الدين ورعًا عن محارم اللـه» بينما هم لم يراعوا حرمة دم ولا مال ولا عِرض، فلا يحق لهم هذا النوع من الإمارة.

وحتى دعواهم إقامة الخِلاَفَة لا تملك السند الشرعي، حيث إن من أهم شروط الخَلِيفَة أن يأتي بالمبايعة بغير إكراه وأن يكون قُرَشِيَّ الأصل، بينما هم يريدون نيل الحكم بقوة السلاح ولا نعلم فيهم قُرَشِيًا، وحتى لو ادَّعَوا ذلك فأين الدليل؟

ـ التناقض الفاضح:

وما أثبت أيضًا حالة الكذب الكبيرة التي أرادوا إعاشة الناس فيها تناقض موقفهم من الدول الغربية ـ بالذات أَمْرِيكَا ـ ومن الأنظمة الحاكمة لبعض الدول العَرَبِيَّة والإِسْلاميَّة. فأَمْرِيكَا التي يعتبرونها اليوم «الشيطان الأعظم» كانت حليفهم الْمُخْلِص وصديقهم الصدوق خلال وجود كوادرهم في صفوف المجاهدين ضِدَّ الاحتلال السُوفْيِيتي في أفغانستان، وكانت مصدر التسليح والتمويل الأول لهم. والأنظمة العَرَبِيَّة التي يتهمونها

بالكفر ـ كالنظام السُّعُودِيِّ والنظام المِصْرِيِّ ـ هي الأنظمة التي فتحت باب السفر للراغبين في الْجِهَاد في أفغانستان وطرد المحتل الروسي آنذاك. وإيران التي يكفِّرونها لشِيعِيَّة مذهبها هي الدَّوْلَة التي احتضنت كثيرًا منهم لاجئين خلال فترة الثمانينات، بل وأطلقت اسم أحدهم ـ خالد الإِسْلامبولي ـ على أحد الشوارع الرئيسية في طهران! وباكستان التي فتحت لهم الحدود مع أفغانستان خلال سنوات المقاومة بل ودعمتهم بالسلاح والتدريبات، هي التي وجه تنظيمهم الأم «الْقَاعِدَة» الضربات إليها لاحقًا بكل عنف! المسألة إذن ليست مسألة مبدأ، بل هي مسألة «أنت معنا إذن أنت مؤمن.. أنت ضدنا.. إذن أنت كافر»!

ـ ضرب الإِسْلام من الداخل:

هؤلاء أكثر من أساءوا إلى الإِسْلام خلال تاريخهم الدموي، فتكفيرهم مَن سواهم، وممارستهم العنف المنظم والعشوائي ضِدَّ المجتمع، وإصرارهم أنهم الوكيل الوحيد للإِسْلام والْمُسْلِمِينَ، خلق نوعًا من التوجس من كل شيء يحمل صفة «إسلامي» (وهو توجس يعترف كاتب هذه السطور أنه هو نفسه مصاب به مما رآه منهم)

ـ ختام:

مسح الأيدي الملوثة بدماء الملايين على عتبات الإله المتهم ظلمًا بالدعوة إلى سفك الدم لم يتوقف، ولن يتوقف ما وُجِدَ ثالوث الشيطان الآمر بالشرِّ.. والإنسان الطامع في المال والسلطة، والسلاح الذي لا يقول: «هذا حقٌّ وهذا باطلٌ».. وما استعرضناه يبقى مجرَّد قشرة من «بعض العيِّنات» من خيط الدم السميك الممتد عبر التاريخ إلى ما شاء الله، ما دامت تغذيه أطماع البشر.

مصادر المعلومات:

1. البداية والنهاية: ابن كثير.
2. الأحكام السلطانية: الإمام الماوردي.

3. أحكام أهل الذِّمَّة: ابن قيم الجوزية.
4. من يتحدث باسم الإِسْلام: جون إسبوزيتو ـ داليا مجاهد.
5. الفِرَق والجماعات الدِّينِيَّة: د/ سعيد مراد.
6. الْقَاعِدَة وأخواتها: كميل الطويل.
7. وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د/ جلال أمين.
8. عولمة القهر: د/ جلال أمين.
9. الفتنة الطائفية: د/ محمد عمارة.
10. التنوير الزائف: د/ جلال أمين.
11. الجريمة: الإمام محمد أبو زهرة.
12. أصول الفقه: الإمام محمد أبو زهرة.
13. تاريخ المذاهب الإِسْلاميَّة: الإمام محمد أبو زهرة.
14. تشريح الشخصيَّة الْمِصْرِيَّة: د/ أحمد عكاشة.
15. ثقوب في الضمير: د/ أحمد عكاشة.
16. عصر التشهير بالعرب والْمُسْلِمِينَ: د/ جلال أمين.
17. إحقاق الحق: فهمي هويدي.
18. المفترون: فهمي هويدي.
19. تزييف الوعي: فهمي هويدي.
20. القرآن والسلطان: فهمي هويدي.
21. طالبان.. جند الله في المعركة الغلط: فهمي هويدي.
22. حتى لا تكون فتنة: فهمي هويدي.
23. الجَمَاعَة الإِسْلاميَّة المسلحة في مصر: د/ سلوى محمد العوا.
24. مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.
25. محمد نبي لزماننا: كارين أرمسترونج.
26. شمس الله تشرق على العرب: د/ زيجريد هونكه.
27. دفاعًا عن مقولة الحَضَارَة الإِسْلاميَّة الـْمَسِيحِيَّة: ريتشارد بوليت.

28. تاريخنا الْمُفتَرَى عليه: د/ يُوسُف القرضاوي.
29. الحق في التعبير: د/ محمد سليم العوا.
30. للدين والوطن: د/ محمد سليم العوا.
31. النظام السِّيَاسِيّ للدولة الإِسْلاميَّة: د/ محمد سليم العوا.
32. منهج عمر بن الخطاب في التشريع: د/ محمد بلتاجي.
33. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإِسْلامي: ظافر القاسمي.

هامش الختام

أهم الجماعات الإرهابية في مصر

خلال تلك الفترة التي شهدت فيها مصر حربًا عاتية بين أجهزة الأمن والإرهابيين الذين ارتدَوْا عباءة الدين، عُرِفَت بعض التنظيمات الإرهابية، هذه أشهرها:

ـ تنظيم «الْقَاعِدَة»:

هو تنظيم أنشأه السعودي أسامة بن لادن سنة ١٩٨٨ في أفغانستان خلال الحرب ضِدَّ الاحتلال السُوفْيِيتي لهذا البلد. كان الغرض الأساسي من التنظيم هو جمع المجاهدين العرب المتفرقين بين أحزاب وميليشيات المقاومة الأفغانية، وضمهم في تنظيم واحد يمثل العرب، خوفًا منه من تورُّط العرب في النزاعات بين تلك الأحزاب التي كانت قد بدأت الخلافات تدب بينها على كعكة الحكم، ورغبة منه في أن يكون هذا التنظيم بمثابة صمام الأمان ضِدَّ أي صدامات داخلية بين الميليشيات الأفغانية. هكذا كان الهدف الظاهر لتأسيس «الْقَاعِدَة». ولكن بعد انتهاء حرب التحرير، أخذت الْقَاعِدَة اتجاهًا تكفيريًا وذلك بأن كفَّرت الحُكَّام العرب ووصفتهم بأنهم «طواغيت» و«صنائع أَمْرِيكَا» وكذلك كفَّرت الشعوب المحكومة ما دامت لم تقدم لـ«الْقَاعِدَة» يد العون، وبدأت في شن حرب دامية رفعت فيها شعار إقامة دولة الإِسْلام الجديدة،

وبعد أن كان أعضاء «الْقَاعِدَة» مجاهدين يدافعون عن بلد إسْلامي هو أفغانستان أصبحوا إرهابيين يسعون لضرب بلادهم، من خلال إقامة بعض التنظيمات المنضوية تحت راية الْقَاعِدَة مثل «جَمَاعَة الْجِهَاد الْمِصْرِيَّة».

ـ جَمَاعَة الْجِهَاد الْمِصْرِيَّة:

هي تنظيم إرهابي خرج من عباءة «الْقَاعِدَة» وبدأ الخروج من منطقة أفغانستان وباكستان بشكل بطيء لكن واثق، بلغ ذروته سنة ١٩٩٣، عندما بدأت حكومة الراحلة بيناظير بوتو تُظهِر عدم ترحيب منها بعَنَاصِر «الْقَاعِدَة» في الأراضي الباكستانية. وكما جاء في كتاب «الْقَاعِدَة وأخَوَاتُهَا» للصحفي اللبناني كميل الطويل، اتخذ قاعدته الأولى في السودان، برعاية النظام السوداني الذي كانت بينه وبين النظام المِصْرِيّ ـ آنذاك ـ مشكلات وخلافات صارخة. كان التنظيم يعمل تحت ستار مجموعة من الشركات المملوكة لأسامة بن لادن، وكانت قيادة التنظيم بيد الدكتور أيمن الظواهري، الساعد الأيمن لأسامة بن لادن، الذي اشترى مساحات كبيرة من المزارع ليتخذها أماكن لتدريب الكوادر الإرهابية المرشحة للذهاب إلى مصر، كما كان يُرسِل السلاح إلى الموجودين بالفعل في مصر من خلال قوافل الجمال التي كانت تعبر الحدود السودانية الْمِصْرِيَّة. الدعم السوداني للحركة لم يستمرَّ طويلاً، فقد قام أيمن الظواهري بإعدام صبيَّين سودانيين بتهمة التعامل مع المخابرات الْمِصْرِيَّة، التي كانت قد بدأت الانتباه لوجود ذيل لـ«القاعدة» على مرمى حجر من مصر، خصوصًا بعد محاولة اغتيال الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء آنذاك (١٩٩٣). إعدام الصبيَّين أثار غضب السلطات السودانية التي رأت أن التنظيم بدأ يتعامل كأنه دولة داخل دولة، فقامت بطرده خارج أراضيها وكان هذا سنة ١٩٩٥، وبعدها مباشرة قام التنظيم بتفجير سفارة مصر في باكستان وأعلن أن ذلك جاء ردًّا على عملية الخرطوم.

ـ الجَمَاعَة الإسْلاميَّة:

نشأت سنة ١٩٧٠ في الجامعات الْمِصْرِيَّة بدعم من الرئيس الراحل أنور السادات (رَحِمَهُ اللـهُ) في محاولة منه لبناء حائط صدٍّ للنشاط الشيوعي بين الشباب الجامعي. بدأت نشاطها في شكل نشاط جامعي عادي، وربطتها عَلاَقة قوية بالإِخْوَان، حتى بدأ يتكوّن فيها (الجَمَاعَة) تيَّار قوي معارض للإِخْوَان وأميَل إلى فكر جَمَاعَة الْجِهَاد السَّلَفِيَّة، ما أدَّى في النهاية إلى اصطدام الجَمَاعَة بالإِخْوَان والسلطة معًا سنة ١٩٧٩ ثم بدأت من سنة ١٩٨٠ في إصدار مجموعة من المنشورات ضِدَّ الأقباط والكَنِيسَة القِبْطِيَّة، وانتقدت موقف النظام من إِسْرَائِيل ومعاهدة السلام مع الدَّوْلَة الإسرائيلية، وكذلك استضافة مصر لشاه إيران المخلوع بعد ثورة الخوميني، وفي النهاية بدأت الجَمَاعَة تتحول إلى النشاط الإرهابي من عام ١٩٨١ ونفذت العديد من العمليات الإرهابية العنيفة، أبرزها اغتيال الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب آنذاك (١٩٩٠)... حتى أعلن أبرز قادتها التوبة عن أفكارهم بعد سلسلة من المراجعات، وكان ذلك سنة ١٩٩٧، الأمر الذي أحدث انشقاقًا داخل الجَمَاعَة وقع خلاله هجوم الأقصر (١٩٩٧) الذي أسقط ٥٦ ضحية من السُّيَّاح الأجانب، وأدَّى إلى إقالة اللواء حسن الألفي من وزارة الداخلية. وسنة ١٩٩٩ اتحدت آراء وأفكار كل قيادات الجَمَاعَة على نبذ العنف تمامًا والرجوع عن الفكر الْجِهَادي السابق.

وُجِدَت تنظيمات أخرى مشهورة، وكانت لها خطورتها التي لا يستطيع أحد إنكارها، كتنظيم «طلائع الفتح» و«الشوقيين» و«السماويين» و«التكفير والهجرة» و«تنظيم الْجِهَاد» (الذي اغتال السادات)، وغيرها، لكننا هنا بصدد عرض لبعض المعلومات السريعة عن الإرهاب في مصر بشكل عامٍّ، بينما يحتاج الحديث عن كل تلك التنظيمات إلى دراسة طويلة وافية لسنا بصددها الآن.

في حضرة التاريخ

(سلسلة من المقالات تم نشرها سابقًا على موقع زائد ١٨)

I

في البدء كان المكان، ثم خلق الله الإنسان وعلمه الأسماء كلها ووهبه العقل.. أخبره عن الخير والشر.. بشره بأنه قد جعل له رفاق صدق يألفهم ويألفونه، أنذره أن سيكون له دوما أعداء يكيدون له ويكيد لهم، وأعطاه حرية الاختيار.. عاش الإنسان في المكان ومن التقائهما جاء الحدث.. ومن المكان والإنسان والحدث تكّون التاريخ، وكبر وعاش ونضج.

ولد التاريخ حرا إذن، وعاش حرا لقرون طويلة، حتى كتب عليه القدر أن يعتقل بين سجن الكتب الثقيلة الجافة المتربة وحبس الصورة الذهنية العامة عنه لدى الكثيرين في كونه حواديت مسلية عابرة، أو معلومات جافة باردة لا روح فيها، وكلما حاول الهرب من محبسه ردوه إلى زنزانته، وحاصروه بتلك الأفكار كما كان المجذومون يُحاصَرون في القرون الوسطى في معازلهم حتى الموت.

هذه مأساة التاريخ في زماننا هذا، إنه محاصر في كونه مجرد علم نظري ثقيل وممل، كل استخداماته تنحصر في بضعة فصول من المقرر المدرسي، يحفظها الطالب ويتقيأها ـ عفوا للتعبير، لكني لا أجد وصفا آخر أكثر واقعية ـ على ورقة الإجابة، ليحصل على درجة النجاح.. أو في كونه مادة صالحة ليقوم كل من هب ودب بتطويعها كالصلصال الطري، لخدمة أغراضه التي لا تخرج عن تدعيم لموقف تيار سياسي منتفع وتشويه لتيار منافس لا يقل نفعية في الغالب، أو توكيد لعظمة مصطنعة لحاكم سلطوي ديكتاتوري النزعة، أو بناء لحائط مبكى معنوي تذرف عنده الدموع على أمجاد الماضي المسحوقة.

سطّح هؤلاء التاريخ وهو أكثر عمقا، وعقدوه وهو أكثر بساطة.

التاريخ هو أنا وأنت ونحن.. ألم نذكر أن عناصره الأولى هي المكان والإنسان والحدث؟ الإنسان هو العنصر الأهم، وما الإنسان سوى نحن؟

على سبيل المثال: ما الذي يجعلك تستيقظ صباحا مبكرا عن موعد عملك بوقت محدد لتتخذ طريقا محددا، تفاديا للزحام المروري، بغرض الوصول في موعدك؟ لن يخرج الأمر عن احتمال من اثنين، إما خبرة سابقة مررت بها، وإما نصيحة وجهها لك البعض.. ما الذي يجعلك تقرر أن خيارات هذا الشخص أو ذاك ستؤدي به وبمن يتأثرون به –بالضرورة ـ إلى هذه النتيجة أو تلك (مع مراعاة أن المؤثرات الإنسانية ملزمة غير حتمية أي قابلة للاختلاف أحيانا وليست محتمة ثابتة كقواعد الفيزياء).. هذا التوقع من أين أتى؟ أليس من مخزون الخبرات والمعارف السابقة بأحوال مشابهة – وليست متطابقة بالكامل بالضرورة ـ تجعلك تلقائيا تستنتج ما سيكون؟ هكذا يتعلم الإنسان كيفية التفاعل مع معطيات ومتغيرات الحياة، سواء على مستوى حياته الشخصية أو على مستوى المجتمعات والعالم كله.. نحن إذن نتحدث عن التاريخ كعلم عملي، وليس أحد العلوم النظرية كما يعتقد البعض.

هكذا التاريخ.. تجارب سابقة وخبرات حياتية إنسانية بعضها على مستوى الفرد، والبعض الأكثر أهمية وخطورة على مستوى المجموعات البشرية من شعوب وأمم ودول وأنظمة.. تجتمع كل تلك الخبرات وتتناسق كقطع الفسيفساء أو لعبة البازل لتقدم لنا «التاريخ»، ويقوم المتخصصون في هذا العلم بتأمل هذه الصورة وتفكيك قطعها ودراسة تعاريج زواياها ومكونات موادها، لإجابة أسئلة مثل «كيف، متى، لماذا» ليصلوا لإجابة السؤال الأهم «إلى أين؟».

من هذا المنطلق يجب أن تكون النظرة العملية الواقعية للتاريخ، ليس كمجرد حكايات أو تواريخ وأرقام أو أحكام جاهزة سطحية، بل ككائن حي له احترامه، متصل بكل فرد منا بشكل قوي، مؤثر ومتأثر بالسلب والإيجاب.

هل تبدو الصورة أكثر وضوحا أمامك؟ أرجو أن أكون قد نجحت في ذلك.. فمن هنا، يبدأ حديثنا عن ذلك المظلوم الغامض في أعين الكثيرين، المهمش رغم أهميته: التاريخ.

II

التاريخ أمر واقع، لا يجامل ولا يحابي.. خذه كما هو أو اتركه كما هو!

كثيرا ما يسألني البعض: «ماذا ستكتب عن الثورة.. مبارك.. المجلس العسكري.. الإخوان.. السيسي.. إلخ؟»

وعندما أجيبهم أنني لو قمت بتأريخ تلك الفترة، فسأقول تحت اسم كل شخص أو كيان «فعل كذا وكذا، وقيل عنه كذا وكذا بالسلب أو بالإيجاب»، وأنني لن أقحم مواقفي السياسية أو مشاعري الوطنية في سرد الأحداث، وسأحرص على عرض كل وجهات النظر أيا كانت قناعاتي الشخصية ـ تواجهني نظرات الاستنكار والسخط.

المشكلة أن قطاعا كبيرا من قراء التاريخ لا يميزون بين مجرد التأريخ والسرد والتوثيق من ناحية، والتحليل والرأي من ناحية أخرى.

فإن كان التحليل يخضع أحيانا لزاوية نظر الكاتب للأمور ـ مع احترام المعطيات الواقعية بالتأكيد ـ فإن التأريخ والسرد لا يخضعان لأية وجهات نظر أو أهواء، بل إن على القائم بهما أن يحيّد مشاعره ومواقفه جانبا وهو يمارس عمله.

على سبيل المثال، لو أنني سأتحدث عما حدث في ٢٥ يناير ٢٠١١ أو ٣٠ يونيو ٢٠١٣ كمجرد راو للأحداث، فسأذكر الوقائع الموثقة بمصادرها، وسأعرض كل وجهات النظر القائلة منها بأنها ثورة شعبية، وكذلك تلك التي تصفها بالنكسة والمؤامرة.

أما لو تحدثت ككاتب رأي، فستنطلق كتاباتي من كوني قد شاركت في ٢٥ يناير و٣٠ يونيو كمؤيد وكمتحمس لها.

هذا ما تفرضه علي الموضوعية والدقة، وكذلك أخلاقيات كاتب التاريخ.

المشكلة الثانية التي تواجه الكتابة التاريخية هي آفة «أدلجة التاريخ»، أي تناول وقائعه من منطلق أيدولوجية معينة تنظر للأحداث من زاوية واحدة هي الانتماء الفكري أو الثقافي لكاتبه.

للأسف فإن بعض أشهر كتاب التاريخ مصابون بهذا الداء، فتراهم ينظرون للأحداث والشخصيات من منطلق انتمائهم، فيحاكمون الشخص بمجرد كونه «هو»، وليس من منطلق كونه «الإنسان»، أهم العناصر الثلاثة سالفة الذكر للتاريخ.. فيعتمدون في تقييمه على مدى توافق مواقفه وتصرفاته مع فكرهم أو تنافرها معه.

على سبيل المثال، الكاتب الدكتور علي الصلابي في كتابه «الدولة العثمانية» يقيم شخصية محمد علي باشا من منطلق سخطه ـ أعني الكاتب ـ على تمرده على السلطة العثمانية، فنراه يشتط في القسوة عليه لخروجه على «الخلافة» حتى يصل لدرجة اتهامه بالماسونية والتآمر على الهوية الإسلامية! ولا أعرف من أين أتى الدكتور الصلابي بأدلة هذا الاتهام الخطير.

وإحقاقًا للحق، فإن كثيرًا من أولئك الذين يقعون في هذا الخطأ في تناولهم أشخاص وأحداث التاريخ، إنما يفعلون ذلك بحسن نية، لكن سواء كانت النية سليمة أو خبيثة، فإن النتيجة واحدة: تشويه فاحش للتاريخ، وإهانة بالغة للبحث العلمي.

المشكلة الأخرى ـ وليست الأخيرة للأسف ـ هي تقييم معطيات الماضي بمعايير الحاضر، أو محاكمة الحاضر بقواعد الماضي.

أما عن الأولى فيقع فيها عادة أهل التيار المدني، فيقوم بعضهم بإطلاق الأحكام على أحداث وشخصيات التاريخ القديم من منطلق قناعاتهم بما يجب أن يكون حاليا.. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نرى بعضهم يقسو في حكمه على بعض الشخصيات التاريخية

وتصرفاتها بنفس قواعد حكمه على الشخصيات المعاصرة، فمثلا نقرأ للبعض كتابات يهاجم فيها فكرة قيام بعض الحكام بغزو جيرانهم في زمن كانت القاعدة السياسية فيه هي «من لا يَغزُ يُغزَ» من منطلق إيمان هذا الكاتب بما توافقت عليه الدول المعاصرة من قوانين حسن الجوار وعدم الاعتداء، أو تدخل دولة في شؤون الأخرى.

وأما عن الثانية، فنلاحظ انتشارها بين أهل التيار الديني، فنراهم يتحدثون عن الواقع المعاصر بطريقة استدعاء قواعد الماضي، فيقول بعضهم أن لو كانت هذه القاعدة أو تلك تنطبق حاليا لما وقع كذا وكذا من المشكلات.. مثلا دعونا نتأمل قول البعض بانعدام حق غير المسلمين في تولي المهام العسكرية، وأن من المفروض عليهم أن يدفعوا الجزية، أو بأن جزءا كبيرا من مشكلاتنا الاقتصادية يرجع لتوقف حركة الفتوحات و«الجهاد».

مع أن الرد البديهي على كلا الفريقين أن «التغير والتطور» هما أهم قوانين الحياة الإنسانية، وأن ما يصلح لزمن ليس بالضرورة صالحا لزمن آخر، بل إنه ربما يكون مفسدا.

تلك السلبيات الثلاث، الهوى الشخصي والأدلجة والتقييم المنفصل عن متغيرات الواقع، هي من أخطر آفات القراءة والكتابة التاريخية، والمهتم حقا بالاستزادة من العلم بالتاريخ عليه أن يراقب نفسه خلال قراءته فيه، حتى يتجنب الوقوع فيها – وهو أمر وارد فجل من لا يخطئ أو أن يعالج نفسه منها لو كان مصابا بها بالفعل، وإلا فإنه لن يمثل إلا إضافة جديدة سيئة لما يمكن أن يوصف بـ«حركة تخريب التاريخ» حتى وإن كان حسن النية، فقديما قيل ـ وقد صدق القائل ـ إن الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة.

III

«ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها»

القرآن. سورة الشمس. ٧ و٨.

«مولاي يحاكم بشرا لا آلهة»

إيزيس تخاطب أوزوريس في محكمة الآلهة.. رواية «أمام العرش» نجيب محفوظ.

«تذكر أنك إنسان»

تقليد روماني، إذ اعتاد الرومان في مواكب تكريم القادة أن يوقفوا وراء القائد المنتصر عبدا يهمس له بهذه العبارة، كلما تعالت هتافات الجماهير.

«عناصر التاريخ ثلاثة: المكان والإنسان والحدث»

الدكتور قاسم عبده قاسم «قراءة التاريخ»

....

الإنسان هو الموضوع الأهم لكتب التاريخ.. هذه معلومة ينساها للأسف كثير ممن يتناولون الشخصيات التاريخية قراءة وكتابة وبحثا، فتراهم إما يقدمون هذا الشخص أو ذاك كإنسان كامل أو ملك منزل من السماء، وإما يخسفون به إلى سابع أرض فيصورونه كشيطان مريد.

وكلتا الطريقتين تحمل انفصالا عن الواقع الذي يقول إن الإنسان ـ أي إنسان ـ هو نفس بشرية بها من الخير والشر ومن المميزات والعيوب ما بها، والنفس البشرية أعمق وأوسع من ألا تحتوي سوى الخير أو ألا يحتويها إلا الشر.. بالتالي فإن الشيطنة أو الملائكية هي نظرة غير ناضجة للإنسان كأعقد مخلوقات اللـه.

المفترض بمن يتناول شأنا مهما كالتاريخ أن يعي ذلك ويراعيه.

....

مما يؤخذ على بعض كتاب التاريخ أنهم لا يراعون ما سبق في كتاباتهم.. في المقال السابق ذكرت الدكتور علي الصلابي، وتناوله لشخصية محمد علي باشا كمثال، فقد أفرد الكاتب

فصلا كاملا من كتابه «الدولة العثمانية» لذم محمد علي إلى حد ربطه بالماسونية ومؤامراتها المزعومة، أما كتابه «الدولة الزنكية»، فقد جاء معظمه في شكل ما يمكن وصفه بالغزل والتعظيم والتفخيم للقائد الزنكي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، فالحديث عن هذا القائد والحاكم لم يتناول سوى مميزاته وإنجازاته ومناقبه، بلا أدنى ذكر لأية سلبيات أو أخطاء أو نقائص طبيعية التوافر في أي إنسان، بلا استثناء، كجزء من الطبيعة البشرية.

نور الدين وإن كان بالفعل قائدا عظيما ومثالا يحتذى للحكام، هو في النهاية إنسان، وعلى من يتناول سيرته ألا ينفي عنه القابلية للوقوع في الخطأ أو الاتصاف ببعض العيوب، أسوة بكل بني البشر، أما تقديمه كنموذج مثالي فهو مما يضر بالتاريخ وبقارئه، واحتجاج من يؤيدون طريقة الدكتور الصلابي بأنه يريد أن يقدم للقراء القدوة والمثل الأعلى، مردود عليه بأن مِن أهم أسرار عظمة أي إنسان متميز، هو تحديه سلبياته ونقاط ضعفه البشرية وتغلبه عليها، وبالتالي فإن فصل إنسانيته عن سيرته إنما هو في حقيقة الأمر انتقاص غير مقصود من قيمته.

سأعطيكم مثالا بسيطا ربما بدا للبعض هزليا، إلا أنه يعكس واقعا جماعيا: لو قارنا بين شعبية كل من شخصيتي «سوبرمان» و«باتمان» للاحظنا أن هذا الأخير يحظى بالشعبية الأعلى، لسبب بسيط هو أنه إنسان به نقاط للضعف يمكن النيل منه من خلالها، إلا أنه يتحداها ويخوض معاركه عالِما بها، بينما «سوبرمان» فهو كائن خارق خال ـ تقريبا ـ من نقاط الضعف الجسدية، وبالتالي فإن بطولته ناقصة لعلمه أن مساحة الخطر عليه بسيطة.

من نفس المنطلق قد يتساءل القارئ: ما دام هذا الشخص كاملا، فما الذي يستحق الإعجاب فيه؟

ومثال آخر، في كتاب المؤرخ الفارسي الصوفي القديم فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء»، يقص علينا سير بعض الأئمة وأولياء الله الصالحين ـ قدس الله سرهم ـ فيصورهم لنا أشخاصا كاملين، بل يجعلهم يفوقون الكمال البشري الطبيعي، حتى لتخرج تصرفاتهم

وردود أفعالهم ومواقفهم عن الطبيعي من البشر، فلا تراهم يغضبون أو يأسفون أو يعتريهم ما قد يعتري البعض من مشاعر وانفعالات السخط أو اليأس أو الاحتداد، وهو بذلك يسيء من حيث أراد أن يحسن، فمثل ذلك التقديم الخيالي لإنسان يجعل القارئ المتشكك يفقد الثقة في مصداقية الكتاب التاريخي، أو يدفع القارئ ـ سهل التصديق ـ للشعور بأن «الأسلاف» كانوا نماذج خارقة على كل منا أن يتشبه بها، وإلا خاب وخسر!

....

من ناحية أخرى، يحدث العكس.

فعلى سبيل المثال، نشبت منذ فترة «خناقة» بسبب تناول شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي.. السبب كان مقالا في صحيفة «المصري اليوم» يتحدث عما وصفه بـ«الجانب الآخر» من سيرة صلاح الدين، مثل قمعه الفاطميين، واستيلائه على ممتلكات الأزهر، وعدم استكماله تحرير فلسطين من أيدي الفرنجة. في المقابل قام محبو القائد الأيوبي بـ«التصدي» لما وصفوه بالتطاول عليه، فهاجموا المقال لا من زاوية قصوره التاريخي ولا من ناحية اجتزائه الأحداث، لكن من منطلق أنه يمثل اعتداء على رمز تاريخي.. وبحق الله! كم نالت صناعة الأصنام/الرموز التاريخية من علم التاريخ بالسلب!

ولسنا هنا في موضع للحديث عن تحليل وتفسير مواقف صلاح الدين، لكن ما يهم هو ما قام به الجانبان من تناول للتاريخ من زاوية واحدة، فكما قام كاتب المقال بشيطنة الشخصية، فقد تناولها المدافعون من منطلق ملائكي ينزهها عن الخطأ.. وهكذا تفرق دم الموضوعية التاريخية بين القبائل!

....

من المفهوم والمقبول والصحي أن تختلف النظرات والرؤى والتقييمات للشخصيات التاريخية، لكن على منطلق المختلفين أن يرتكز لقاعدة من الموضوعية والدقة والعقلانية،

والسعي بصدق لتقديم الواقع التاريخي كما هو، لا انتقاء ما يخدم الانحياز الفكري أو وجهة النظر المعدة مسبقا.

فالتاريخ أمانة، وعلى من يتصدى له إذا عرضت عليه الأمانة أن ينظر لنفسه، فإما أن يكون أهلا لحملها، وإما أن يشفق منها على نفسه وعلينا فيأبى أن يحملها.. ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

والإنسان خليفة الخالق في أرضه، فتسطيحه وإظهاره ككائن أحادي الجانب هو ابتذال له، ولو نصب التاريخ محكمة وسن قانونا لَحاكم من يقومون بهذا بتهمة «ازدراء الإنسان».

IV

كنت قد تحدثت سابقا عن أدلجة التاريخ.. بعدها بيوم أو اثنين تصادَف أن كتبت على صفحتي على «فيسبوك» كلاما عن الدولة العثمانية ومصائبها وبداية مشكلاتها مع دولة المماليك، وما ترتب على احتلال العثمانيين لمصر والشام.. إلخ..

سبب كتابتي هذا الكلام هو انتشار البكائيات على «الخلافة» العثمانية، والسلاطين الخلفاء العظام الذين كان أحدهم ليهب مرتديا ملابس الحرب عندما يعرف أن الفرنسيين ينوون عرض مسرحية مسيئة للرسول (ولا أعرف من أي مصدر جاء الراوي بهذه القصة عن السلطان عبدالحميد!).

مشكلة هؤلاء الذين يمارسون هذا النوع مما أصفه أنا بـ«المُحن التاريخي» ـ والدولة العثمانية هي مجرد مثال ـ فضلاً عن أدلجتهم التاريخ وتحويلهم إياه لصراع بين الفئة التي تمثلهم لتقارب ديني أو لغوي أو عرقي، ضد العالَم كله الذي يتآمر عليها، أنهم أيضًا يُسطّحون التاريخ ويَعتبرون أن الحياة تنقسم للخير المطلق والشر المطلق، فمن يرفع راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هو الخير، أما من سواه فهو الشر.. ومن يعترض على حامل الراية فهو كافر أو مُعادٍ للشريعة والدين.

على هذا الأساس الطفولي يقيّمون الدول والأنظمة وتجاربها التاريخية، ويختصرون عوامل الانتصارات في قوة الإيمان، وأسباب الهزائم في ضعفه.. هؤلاء القوم يمثلون رِدّة عن ارتقاء العقل البشري الذي بدأ بالأسطورة والخرافة ثم تركهما وسار في ركب العلم والتفكير العقلاني، فإذا بهم يرتدون للوراء ويقررون تفسيرات غيبية لوقائع مادية!

تعال ننظر لنموذج الدولة العثمانية كمثال لما يمكن لأدلجة التاريخ أن تفعل به:

دعونا نعترف أنها ـ الدولة العثمانية ـ كانت تمثل أحد خطوط الدفاع الشمالية عن المنطقة العربية، وكانت علاقاتها بالدولة المملوكية في مصر والشام رائعة، حتى إن السلطان المملوكي الأشرف إينال قد أرسل يهنئ السلطان العثماني محمد الفاتح بفتح القسطنطينية، بعد أن كان هذا الأخير قد أرسل البشارة إلى القاهرة بذلك، ولكن تغيّر هذا الوضع بعد وفاة الفاتح وتولي ابنه بايزيد الثاني الحكم.

ففي عهد السلطان المملوكي الأشرف قايتباي، وصل الأمير «جُم»ـ أخو السلطان بايزيد الثاني ـ إلى مصر هاربا من أخيه الذي كان يريد قتله، بموجِب قانون أقره الفاتح قبل موته، يعطي السلطان الحق في قتل إخوته الذكور منعا للتنازل على الحكم وإثارة الفتنة، ولأن السلطان قايتباي كان معروفا أنه لا يرد من استجار به، فقد أحسن استقبال الأميرـ المعروف في المصادر التراثية باسم «الجمجمة» ـ واستضافه عنده.

أرسل السلطان العثماني إلى نظيره المملوكي يطلب منه تسليم أخيه، فرفض قايتباي ذلك احتراما لحق الضيف، فما كان من بايزيد الثاني إلا أن بدأ في التحرش بالممتلكات المصرية في شمال الشام وجنوب الأناضول، وهذا بتحريض القبائل والإمارات التركمانية الموالية للمماليك أن تخلع الطاعة وتُغير على حلب ومدن شمال الشام.. ورغم انتهاء أزمة الأمير «جم» بفرار هذا الأخير من مصر إلى أوروبا (بعد رفض قايتباي أن يعينه على محاربة بايزيد رغم أن هذا كان ليكون في مصلحة المماليك) وحاول اللجوء للقوى الأوروبية، ثم توفي هناك في ظروف غامضة، إلا أن العثمانيين بقوا على استفزازهم للمماليك

باعتداءاتهم بالقوة المسلحة أو بالتآمر على شمال الدولة، الأمر الذي استدعى لجوء القاهرة للقوة العسكرية التي استطاعت ردع هذه الاعتداءات.

ورغم ذلك العداء من قِبَل العثمانيين، حاول قايتباي أن يقر السلام مع بايزيد، لأن أصوات الاستغاثة كانت قد بدأت تصل من غرناطة المحاصَرة من الإسبان.. فجرت المراسلات بين القاهرة والقسطنطينية لإقرار السلام والتعاون عسكريًا لإنقاذ المعقل العربي الأخير في الأندلس، ولكن كان الوقت قد فات وسُلِمَت غرناطة لإيزابيلا وفرناندو.

وبدلا من أن يستمر التعاون العسكري لأجل إنقاذ مسلمي الأندلس الذين كانوا يعانون ـ إضافة إلى اليهود ـ اضطهادا دينيا كاثوليكيا، تعرضت الدولة العثمانية لاضطرابات سياسية سببها تطلع سليم ـ ابن بايزيد ـ للحكم، وانتهت بالفعل باعتلائه العرش باسم سليم الأول الذي قرر ـ خذوا بالكم.. سلطان المسلمين العظيم الذي يسبّح كثير من الإسلاميين بحمده وحمد خلافته ـ أن يغزو الشام ومصر! طيب وأوروبا؟ المسلمون المضطهدون؟ والغارات الإفرنجية على شمال المغرب؟ لا.. فلنغزُ الشام ومصر ولنُقِم خلافتنا!

ولأن خلفاء قايتباي كانوا بين لاهٍ ومتسلق وفاشل ومجنون، فقد كان من الطبيعي أن تسقط الدولة سريعا في يد العثمانيين.. وأن يدخل سليم الأول إلى القاهرة التي أباحها لجنوده – كأي غازٍ همجي يحترم نفسه ـ نهبا وسلبا وقتلا وترويعا، إلى درجة اقتحام الأضرحة وقتل اللاجئين إليها، حتى انحنى له كبراء المصريين، وقدموا له فروض الطاعة ودعوا له من فوق المنابر.

ومن سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٨٠٥م، بقيت مصر رهينة في يد الغول العثمانلي.

سؤال لهؤلاء الذين باسم أدلجة التاريخ يسبحون بحمد الدولة العثمانية وخلافتها المزعومة آناء الليل وأطراف النهار:

من بدايات القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر.. اذكروا لي عشر أسماء قدمتها المنطقة العربية الإسلامية والمناطق الواقعة في نطاق «الإمبراطورية العثمانية» للعالم في مجالات مثل الفقه، التاريخ، الاقتصاد، السياسة، الفن، الأدب، وغيرها.. لاحظوا أننا نتحدث عن منطقة تشمل من المحيط الأطلنطي إلى الخليج العربي، ومن جنوب السودان إلى اليونان والبلقان.

لماذا لا تردون؟

حسنًا: كيف حمت الدولة العثمانية المناطق العربية والإسلامية؟ ما هي آلياتها للقيام بذلك؟ وهل نجحت تلك الآليات؟ هل كان تقاسم القوى الاستعمارية الأوروبية لممتلكات العثمانيين، في القرن التاسع عشر، ليكون أكثر صعوبة لو لم يقم العثمانيون بفصل الأقاليم العربية بعضها عن بعض، وفرض المركزية المفرطة عليها وتحويلها لمجرد موارد للخزانة السلطانية؟

كيف - والسؤال للإسلاميين بالذات - تقولون إن الدولة العثمانية كانت خلافة، بينما تعلمون أن الشروط الأربعة الأساسية للخلافة أن تأتي بالبيعة الحرة، وأن يعمل الخليفة بالشورى، وأن يحكم بالعدل، وأن يكون قرشي النسب؟ (راجعوا كتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» للإمام القاضي أبو الحسن الماوردي) هل في الخلافة توريث؟ هل فيها استبداد بالحكم؟ هل عمل العثمانيون بالشورى؟ هل حكم جميعهم بالعدل؟ هل هم قرشيو النسب؟ ماذا عن الحديث القائل بأن الخلافة بعد النبوة تظل ثلاثين عامًا ثم تصير مُلكًا عضوضًا؟ هذا الحديث بموجبه لا الأموية ولا العباسية ولا الفاطمية ولا الأموية في الأندلس تنطبق عليها صفة الخلافة.. فلماذا تكون العثمانية استثناء؟

ماذا عن طريقة تكوين فرق الإنكشارية بانتزاع أطفال صغار من أحضان أسرهم غير المسلمة وتكوين فرق مسلحة منهم؟ هل هذا مما يقره الإسلام؟

سؤال أخير: هل أعز سلاطين بني عثمان الإسلام والمسلمين؟ كيف؟ بالضرائب الفاحشة والضرب بالعصا عقابًا على تأخيرها؟ أم بالولاة المرتشين وانتشار الفساد الإداري؟ أم بالجرائم العنصرية في حق غير المسلمين؟ أم بنشر الخرافات والدروشة ومحاربة العلم والتنوير؟

....

إن تقييم الأمم والدول والحكام والأنظمة يكون بفصل تام بين المشاعر ـ بالذات الدينية والوطنية ـ وبين العقل.. ويكون التقييم على ثلاثة مستويات هي: الدولة خارجيا، الدولة داخليا، حال الشعب.. فلا يمكن أن نختصر تقييم دولة في أنها كانت تمتلك جيشًا قويًا، أو أنها كانت ملتزمة دينيا من حيث المظهر.. بل يجب أن نفحص كل جانب من جوانب الحياة وكل مجال من المجالات على حِدة، ثم بعد ذلك نقوم بتقييم الدولة/ النظام/ الحاكم في ضوء كل ذلك.

لكن فكرة أن نعظّم من دولة فقط لأنها كانت تعيد أيام الفتوحات وأمجادها وقهر جيوش الأمم وهذا الكلام الكبير، هي فكرة طفولية، خصوصًا لو علمنا أن السلطات «الفاتحة» كانت تهتم بتحصيل الضرائب والجزية أكثر مما تهتم بنشر الإسلام أو ثقافته، بل وكانت تقدم صورة قبيحة شديدة القتامة للمسلم أمام أعين الشعوب الأخرى، وما مذابح الأرمن ببعيدة – بمقاييس التاريخ ـ حتى ننسى!

لماذا اكتست نظرة هؤلاء للدولة العثمانية –وأكرر أنها مجرد نموذج ـ بالطفولية وانعدام النضج؟ ببساطة لأنهم قد قرروا أن ينظروا للتاريخ عبر أيديولوجياتهم وتوجهاتهم ونزعاتهم وانحيازاتهم، وليس عبر العقل والعلم والمنطق.

هذا عن «عينة» من المصائب المترتبة على أدلجة التاريخ.

فماذ عمّا يحدث إذا فصلت النص التاريخي عن سياقه؟

هذا ما سنتناول في المقال التالي.

V

ثمة مقولة حكيمة لإحدى المدارس الفلسفية تقول: «الكُل أكبر من مجموع أجزائه».. وهي تعني ببساطة أن أي شيء مكون من أجزاء، هو أكبر وأشمل وأوسع من مجموع هذه الأجزاء وهي مفككة.. هكذا فهمتُ العبارة.

وهكذا التاريخ.. صحيح أن من الضروري أن تقوم من وقت لآخر بتفكيك أجزاء الحدث أو الحالة التاريخية وتنظر في كل منها على حِدة، لكن عليك أن تدرك أن الفارق كبير جدًا بين التفكيك والتأمل من ناحية، واجتزاء النص التاريخي من سياقه من ناحية أخرى.

مثال بسيط: هل تعرف المقولة الشهيرة: «سعد زغلول قال مفيش فايدة»؟

غالبا ما تقال هذه العبارة باعتبار أنه قد قالها عن المصريين، وأن لا فائدة من انصلاح أحوالهم أو نجاحهم في نيل الاستقلال والحرية.. هل تعلم أن ثمة قصة أخرى تقول إنه قالها في مرضه الأخير، لزوجته السيدة صفية زغلول، عندما يئس من العلاج فقال: «مفيش فايدة يا صفية.. غطيني»؟

ماذا عن الحديث الشريف الشهير: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»؟

سأقص عليكم قصة.. عندما أرسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسله لملوك وحكام بيزنطة وفارس ومصر والشام، تقبّل كلهم منهم الرسالة باحترام، ما عدا كِسرى أبرويز، فقد مزقها وغضب قائلًا: «يقول لي هذا وهو عبدي؟»، وأرسل إلى الحاكم الفارسي على اليمن يأمره بالتوجه للمدينة لاعتقال الرسول أو إحضار رأسه، فعندئذ علم الرسول بأن الله قد سلّط على كِسرى ابنه شيرويه الذي قتله واستولى على الحكم، وأخبر رجال حاكم اليمن بأن الوحي قد جاءه بهذا الخبر.

عندما علم بذلك باذان ـ حاكم اليمن من قِبَل كِسرى ـ تأكد أنه يتعامل مع نبي صادق، فأسلم هو ورجاله.

نتيجة لهذه التطورات كان الرسول يحرص على معرفة أخبار التطورات في فارس، وهو أمر طبيعي، لأن خروج اليمن من سلطتهم قد يترتب عليه تحركهم لغزوه ـ وقد أصبح اليمن منطقة مسلمة ـ أو حتى غزو المدينة.. وذات يوم علم بأن الاضطرابات السياسية في بلاد الفُرس قد بلغت حد سقوط حكم كسرى شيرويه بن كسرى أبرويز، وأن الفراغ السياسي قد دفع رجال الدولة لتولية ابنة لكِسرى على حكم البلاد، فكان تعليقه على ذلك: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة».

بسبب هذا النص يقع الخلاف بين أولئك الذين فسروه بأنه نصّ عام يشمل كل الحالات، وهؤلاء الذين يقولون بأنه يخص تلك الحالة فحسب، بينما ظهرت آراء وتوجهات أخرى مثل الذين يقولون إن النص يعني «الإمامة العظمى» ـ أي الخلافة ـ ولا يعني مناصب المُلك والقضاء والرئاسة والحكومة... إلخ.

ولسنا هنا في مجال للمفاضلة بين هذه التفسيرات، لكن دعونا نعترف بأن نسبة ضخمة ممن يعتبرون أن هذا النص ـ أعني الحديث ـ عام ومطلق ويشمل كل حالات تولي المرأة للمناصب القيادية، هم ممن وصلهم الحديث مجتزءا عن موقف قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ له.. بالتالي فسواء كان موقفهم من تولي المرأة للرئاسة أو رئاسة الحكومة أو ما إلى ذلك موافقًا للصواب أو الخطأ، فإن أساس موقفهم خاطئ، وقاعدته رخوة، لأنهم بنوه على مجرد نص لا يعرفون ظروف وجوده.

....

وما دمنا قد تطرقنا للنص التاريخي «الديني»، فسنجد أمامنا إشكالية مستفزة جدا:

فالمفترض أن الحدث/ الموقف/ القول هو ابن زمانه وظروف «ولادته».. صحيح أن بعض الأقوال والمواقف تصلح للإسقاط على أزمنة وأحوال مختلفة، أو تصلح للاسترشاد بها، فيما يتعلق بالتفاعل مع معطيات هذه الأزمنة والأحوال.. إلا أن هذا لا ينطبق على كل المأثورات التاريخية. ومنها: الأحاديث الشريفة!

بلى.. فكمشتغل بالتاريخ ألاحظ أن نسبة ضخمة من الجهل بالتاريخ وأسلوب قراءته والنظر فيه، تأتي من منبع التقديس المتشنج لبعض الأقوال، لأنها منسوبة للرسول ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو للصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ لأن الذي يقدس نصا ـ أيا كان مصدره ـ يمتنع عن النظر فيه بنفس جرأة النظر في باقي النصوص «العادية» بالنسبة له.

مبدئيا، فأنا على المستوى الشخصي لا أعترف بمسألة أن «صحيح البخاري» ـ أو غيره من كتب الأحاديث ـ هو «أصح كتاب بعد القرآن»، فمن ناحية فإن القرآن الكريم كتاب إلهي مقدس كامل لا تجوز مقارنته بعمل هو «مجهود بشري صاحبه قابل للوقوف على الصواب أو الوقوع في الخطأ»، ومن ناحية أخرى فمع كامل احترامي للمجهود الذي بذله الإمام البخاري وغيره، فإن فكرة تحصين نص كتبه إنسان من مجرد التشكيك والنظر هي تقارب فكرة الوثنية في ذهني.

لكن مسألة صحة أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما ليست موضوعنا هنا، على الأقل حتى الآن.. موضوعنا هنا هو «سياق وجود الحديث».. ما هي ظروفه وملابساته؟ هنا تواجهنا الإشكالية سالفة الذكر: فهل نفرض معاملة واحدة ومستوى واحدًا من التدقيق في ارتباط النص بالظروف الزمنية والمكانية، وغيرها من المعطيات المرتبطة بميلاده، لمعرفة مدى قابليته للتطبيق والإسقاط على «حالات» متأخرة زمنيا عنه؟ أم أن علينا أن نميّز الأحاديث النبوية فنحصّنها من هذا التدقيق ونتعامل معها كـ«قواعد أبدية»؟

مع كامل احترامي لكل الآراء، لكنني أرى الإجابة شديدة البساطة، فبما أن الرسول ـ وفق المعتقد الإسلامي ـ «إنسان» بعثه الله تعالى إلى «بني الإنسان»، وبما أن «الإنسان» ـ بشكل عام ـ هو أهم عناصر التاريخ، فإذن بالتالي لا يوجد أي مبرر لأن نفصل عن هذا الرسول

وكل ما يتصل به صفة «الإنسانية».. صحيح أنه «لا ينطق عن الهوى» وأنه «إن هو إلا وحيٌ يوحَى»، لكن وضع الأحاديث الشريفة في إطارها التاريخي، والنظر لها داخل هذا الإطار، لا يطعن في الرسالة ولا الوحي في شيء.. فقط هو يضع نطاقًا زمنيًا ومكانيًا حول الحديث، فلا يتوسع في تطبيقه على حالات تختلف أطرها الزمانية والمكانية.. وهو ما ينطبق على كل النصوص التاريخية، فأين المشكلة؟

....

كذلك ثمة مشكلة أخرى تتعلق باقتطاع النص أو اجتزائه، وهي تعرُّض الشخص التاريخي المنسوب له النص للظُلم.. سأعطيكم مثالًا:

في العصور الوسطى ـ تحديدا في العصر المملوكي، وأكثر تحديدا عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ـ تجددت الهجمات المغولية على الشام.. كان المغول قد أسلموا، لكنهم بقوا على اعتناق فكرة تفوق الجنس المغولي، فكانت غاراتهم لا تختلف كثيرا في وحشيتها ودمويتها عن تلك التي قادها أسلافهم، مثل جنكيز خان وهولاكو.

وباعتبار أن السلطان المتربع على العرش في القاهرة هو سلطان البرَّين ـ مصر والشام ـ وملك البحرين ـ المتوسط والأحمر ـ وخادم الحرمين الشريفين وسلطان المسلمين، فقد كان على الناصر محمد أن يجمع الجيش ويطلق النفير العام لمجاهدة المغول، لكن كانت حالة من الحرج تسيطر على الناس من فكرة محاربة قوم مسلمين مثلهم، فخرج ابن تيمية بمجموعة من الفتاوى التي تبيح «مقاتلة المسلم للمسلم دفعا للبغي والأذى والإفساد في الأرض».

بعد قرون من وفاة ابن تيمية، خرجت علينا المنظمات الإرهابية لتتبنى تلك الفتاوى، وتعتبر بموجبها أن أية أرض لا ينطبق فيها الإسلام كما يرونه هم، فهي مسرح للجهاد! وبالتالي فقد أصبح ما يرتكبون من قتل وترويع هو «جهاد حلال»، وليس قتلاً بغير حق وفسادًا في الأرض.

من دون دخول في تفاصيل يطول أمرها، فإن هؤلاء قد عبثوا بفتاوى ابن تيمية، ولووا أعناقها لتناسب أهدافهم وأغراضهم وممارساتهم، فما الذي حدث؟ ببساطة أصبح ابن تيمية متهما في أعين الكثيرين بأنه وغد متطرف محرض على العنف مشجع على سفك الدم والإرهاب.. هؤلاء الذين أوّلوا فتاواه كما يحلو لهم، أخرجوها من سياقها التاريخي والظرفي، وهؤلاء الذين أدانوا ابن تيمية، قاموا بمجاراة هؤلاء في إخراج الفتاوى من سياقها، وحاكموه وأدانوه على أساسها.. والرجل بريء من تفسيرات هؤلاء واتهامات أولئك! (ولستُ في سياق الدفاع عنه بشكل عام، لكني أتحدث عن فتاوى مجاهدة المغول تحديدا).

ولكلا الفريقين أتباع لم يفكروا في النظر بأنفسهم في فتوى ابن تيمية وظروفها وملابساتها، قبل أن ينساقوا وراء أو ضد صاحبها.

هل تدركون ما أدى إليه مثل هذا الاقتطاع؟ إنه لم يؤد إلى مجرد تشويه التاريخ، بل إلى انتقال الضرر للحياة المادية متمثلا في أعمال القتل والعنف! أعتقد أن هذا ينفي عن التاريخ فكرة أنه مجرد علم نظري بحت.

....

هذا عن الكوارث المترتبة عن اقتطاع النص عن سياقه.

فماذا عن «محاسبة الماضي بقواعد الحاضر، ومحاكمة الحاضر بقواعد الماضي»؟

VI

التاريخ كائن متحرك.. وميزة كل حركة للتاريخ أن لها خصوصيتها وتفردها مهما تشابهت ظروف وملابسات الحركات، فإن كانت في الحياة ثوابت وضوابط عامة، فإنه لا يمكن الحكم على حالة تاريخية بنفس ضوابط وقوانين غيرها.

فلماذا يحاول البعض محاسبة الحاضر بضوابط الماضي أو محاكمة الماضي بقواعد الحاضر؟

....

منذ سنوات خرج علينا الشيخ أبو إسحاق الحويني يُرجِع المشكلات الاقتصادية إلى توقف حركة الغزو والفتوحات، وبالتالي توقف مورد الغنائم والسبي الذي كان من الموارد الثرية، خلال فترة الفتوحات والتوسعات الخارجية العربية الإسلامية.

وللأمانة فإن الشيخ قد نسب له بعد ذلك تراجعه عن هذا الكلام، وهو ما أرجوه حقا، لكن حديثه المذكور يستحق النظر.

فللأسف يوجد عدد ليس بالقليل ممن يعيشون حالة يمكن وصفها بالنوستالجيا الدينية، يؤمنون بضرورة استدعاء حالة «الفتوحات»، ويهللون للخطاب المتحسر على انتهائها، ولبكائيات الإمبراطورية الإسلامية السابقة.

فتوحات وغزوات وسبي وغنائم، في عالم مختلف لم تعد تحكمه قاعدة «إن لم تَغزُ غُزِيت»��، وإنما صارت تحكمه مواثيق وقوانين دولية واتفاقيات حسن جوار (بصرف النظر عن جدية وواقعية كل ذلك من الناحية التطبيقية)، فلم تعد حدود الدول قائمة على طبول الحرب وصيحات «الله أكبر» و«الله يريدها».. وصارت الصراعات فيه صراعات تفوق علمي سياسي اقتصادي ثقافي، أكثر من كونها صراعات السيف والخيول والمجانيق.. بل لم تعد الدول تسعى لأن تصبح دولا كبرى تعتمد على مساحة أراضيها، بقدر ما صارت تسعى لأن تصبح دولا عظمى تعتمد على مساحة نفوذها، بصرف النظر عن حجمها الفعلي الذي تمثله حدودها السياسية.

هؤلاء القوم توقف بهم الزمن عند منطقة تاريخية معينة عجزوا عن تجاوزها، والأسباب لا ترتبط بمستوى تعليمي أو ثقافي، وإلا ما وجدنا بين هؤلاء أو حتى بين الأكثر تطرفا ممن

انضموا للجماعات الإرهابية أطباء ومهندسين وكيميائيين، وغيرهم من خريجي التعليم العالي، ولا هو مرتبط بالضرورة بالمستوى الاجتماعي أو المادي لأننا نجدهم بين أبناء مختلِف الطبقات، وإنما يرتبط الأمر بالمستوى الفكري ودرجة النضج العقلي المتحكم في التعامل مع الواقع.

هل هو العجز عن مسايرة الواقع؟ هل هي حيلة دفاعية نفسية لإدراك أصحابها أنهم ينتمون لمجتمع صار ضعيفا مسحوقا أمام العمالقة المتسيدين لميادين العلم والسياسة والاقتصاد، بل والإنسانية، فصنعوا من أمجاد الماضي حائط مبكاهم الخاص؟

وعلى الناحية الأخرى نرى مشكلة لا تقل خطورة، فمن وقت لآخر نجد من يخرجون علينا بمقالات وتصريحات تتناول بداية تاريخ الدولة العربية الإسلامية بالإدانة، لقيام الدولة الناشئة بغزو جيرانها من الفرس والروم وغيرهم، واصفين إياها بأنها دولة استعمارية استعبادية، قامت على غزو الشعوب واستعبادها، ونشر مبادئ الإسلام بينها بقوة السلاح.

هؤلاء أيضا انفصلوا في تناولهم للتاريخ عن قاعدة ضرورة مراعاة ظروف ومعطيات كل فترة، فنسوا أن قانون العالم وقتها كان الغزو والغزو المضاد، كما أن القارئ المدقق للتاريخ الإسلامي يدرك أن الغزوات الأولى كانت بمثابة الحروب الدفاعية التأمينية الضرورية، فغزو العراق وفارس جاء ردا على قيام كسرى بإصدار الأمر لواليه على اليمن بأسر أو قتل الرسول، وغزوات الشام جاءت ردا على قيام الوالي التابع لبيزنطة بقتل مبعوث الرسول محمد إلى الشام، وقيام القوات البيزنطية بقتل وتعذيب القبائل المسلمة القاطنة على حدود الشام مع الحجاز، وغزو مصر وقبرص وشمال إفريقيا كان في إطار حرمان بيزنطة من قواعدها ومواردها، وفي المقابل إفادة الدولة الإسلامية من تلك الموارد، كما أن قانون العالم وقتها لم يكن يستنكر العمليات التوسعية، وهو ما استمر خلال العصر الأموي وما بعده.. لم توجد وقتها عصبة أمم أو منظمة أمم متحدة أو مجلس للأمن العالمي.

هذا فضلا عن أن هذه السياسة التوسعية لم تكن اختراعا عربيا، فالملك المصري القديم زوسر كان أول من أقر قاعدة حماية الحدود بالتوسع خلف حدود الجيران، والإسكندر

الأكبر المقدوني أقام دولته الهيلينيستية بغزو الهند وفارس والشام، واليونان والرومان والفرس والصينيون كانوا يطبقون نفس السياسة باعتبارها عرفا عالميا.. ولو أدنا قيام أحد هذه الشعوب بغزو جيرانه، لتحتم علينا إدانة عصر بأكمله وقرونا بأكملها من حياة العالم، وهو ما يعيدنا لحالة الانفصال عن الواقع التاريخي.

هؤلاء أغفلوا أن فحص التاريخ كفحص أجسام البشر، لكل جسم حالته وظروفه التي أدت به إلى ما هو عليه، فلا يمكن أن تشخص حالة إنسان بغير مراعاة تاريخه الطبي الخاص.

وهذه المشكلة أيضا ليست عائدة لنقص تعليم أو ثقافة، وإنما لغياب الوعي التاريخي والنضج العقلي الكافي لوضع كل حالة تاريخية في الميزان.

وعودة للتساؤلات حول سبب تلك الحالة.. هل هو العجز عن الوقوف على أسباب التخلف المجتمعي، والردة الإنسانية التي يعيشها مجتمعنا، ما استدعى حالة هروب من الوقوف على الأسباب الواقعية العملية، وبالتالي إسقاط المسؤولية على عصور مضت وانقضت؟

هل من الصعب على كلا الفريقين إدراك حقيقة أن الوضع التاريخي هو ابن زمانه ومكانه وملابسات عصره؟ إن تلك الحالة من استدعاء الأحكام الاستسهالية هو مما يمكن ـ بحق ـ اعتباره ردة للفكر الإنساني، وحجارة ثقيلة تجذبنا إلى القاع وتعيقنا عن التقدم إلى الأمام.

وهي ـ طريقة التفكير هذه ـ لا تهين التاريخ فحسب، وإنما تسيء كذلك إلى المنهج العلمي والعقلي في تقييم الأمور.

هذا عن تقييم الماضي بقوانين الحاضر، والحاضر بقوانين الماضي.

فماذا عن إهانة موروثات الماضي المكونة لمعطيات حاضرنا؟

VII

بينما تزدحم المكتبات الأجنبية بالكتب والمقالات والأبحاث التي تتناول الحضارة المصرية القديمة، ويأتي الزوار من مختلف دول العالم لمشاهدة آثارها، وتدرس الجامعات في أوروبا وأمريكا تاريخها، يقرر بعض العباقرة أن يختصروا قرونا من الحضارة والعظمة في وصفها بـ«الحضارة العفنة».. قالوها ثم عادوا لينجعصوا في مقاعدهم مربتين على كروشهم وهم يعبثون بلحاهم الكثة وأصابع أقدامهم المتعرقة، وهم يشعرون بالرضا عن النفس أنهم قد قاموا بدورهم في إعلاء شأن الحضارة الإسلامية، بسبِّ ما سبقتها من حضارات!

هؤلاء قوم يؤمنون بقاعدة بسيطة: يمكن أن تكون صاحب حضارة عظيمة ما زالت تبهر العالم بإنجازاتها وتراثها بعد اندثارها بقرون، لكنني رغم ذلك أملك الحق في أن أنتقص منك وأهينك فقط لأنك لست على ديني!

أقدم نظام سياسي في التاريخ، أول دستور ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، علمت العالم الزراعة والطب والكيمياء، تركت تراثا هائلا من الحكم الأخلاقية.. كل هذا لا شيء، فأنت مجرد كافر هالك لم تترك سوى بعض المباني والتماثيل التي أرى أن من الأكثر إفادة للمجتمع أن تباع للغرب الكافر، ما دام يحبها ويحترمها إلى هذا الحد.

بهذا المنطق المختل المتخلف يهين هؤلاء الرعاع تاريخ أجدادنا.

....

ثمة تعبير عامي يصف هذا السلوك بأن صاحبه «بيتف في عبه».. هؤلاء الذين توصف حضارتهم بالعفن ـ ولا أعرف كيف تتفق الحضارة مع العفن ـ هم أجدادنا، هم أجداد ذلك الجلف الذي يسبهم، هي إهانة قومية لكل مصري على وجه الأرض.. ولأن من المعروف أن هؤلاء الأجلاف لا يؤمنون بالقيمة الحقيقية للانتماء المصري، فدعونا نتناول الإهانة من زاوية أخرى هي أنهم في حقيقة الأمر يهينون الموروث الإسلامي نفسه.. هل ترونني أبالغ؟ تعالوا ننظر للأمر بهدوء.

هذه الحضارة الفرعونية هي موطن الأم الأولى العظيمة للعرب: السيدة هاجر والتي تمثل صلة الرحم بين المسلمين ومصر، تلك الصلة التي نقلت لنا كتب التراث أقوالا عنها، منسوبة للرسول محمد، بل ونقلت لنا قول بعض من بلغتهم هذه الأقوال أن هذه الصلة البعيدة لهي أمر لا يبجله إلا من كان نبيا حقا.

وهي كذلك موطن لمكارم الأخلاق التي قال الرسول إنه إنما بعث ليتممها، فلنقرأ أقوال الحكيم بتاح حتب التي أوصى فيها الابن ببر أمه، والزوج بالعطف على زوجته، والحاكم بالعدل في رعيته.. أي أخلاق عظيمة هي؟ فهل نسبُّ حضارة أضافت للعالم من مكارم أخلاقٍ قال رسولنا إن الله قد بعثه ليتممها؟ هل يمكن أن نقول إن الله بعث رسولا لإتمام مكارم أخلاق حضارة عفنة؟

ماذا عن القوانين التي وضعها الملك حورمحب لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم؟ أليست هي من العدل الذي قرأنا عنه في كتب التراث الديني، أن الله يصون به الدولة ولو كانت كافرة، ويضيع بغيابه الدولة ولو كانت مؤمنة؟

ولو نظرنا من منظور ديني، فموروث الحكم عبر عهود تلك الدولة الفرعونية، أليس مما يوصف بأنه «ضالة المؤمن»؟ فهل يجد المؤمن ضالته في العفن؟ هل كان الرسول ليريد لأتباعه أن يبحثوا عن ضالتهم في العفن؟

هل أدرك القارئ لماذا أعتبر أن التطاول على حضارة الأجداد هو بمثابة تطاول على موروث حضارة الإسلام؟

....

وإذا تركنا هذه الإهانة جانبا وتناولنا إهانة أخرى هي المطالبة بتدمير آثارنا، فسنرى العجب العجاب، فمثل أصحاب هذه الأفكار نرى غير بعيد عن منطقتهم الفكرية - التي هي العفن

ذاته ـ فئة منهم تبارك هدم وتدمير الآثار باعتبار أنها من «أصنام وطواغيت الكفرة»، أسوة بما فعل الدواعش بآثار سوريا والعراق.

من أين أتوا بهذه الفكرة؟ وحده الله يعلم، فلو قرأنا التاريخ الإسلامي لرأينا أن البلاد التي تحتوي أكثر هذه الآثار، قد فتحها المسلمون الأوائل في عهد أكثر الحكام المسلمين شدة في أمر الدين، وأعني الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب.

الشام، فارس، مصر، العراق، بكل ما فيها من آثار فينيقية وأشورية وسومرية وبابلية وفرعونية وبطلمية وفارسية، فتحتها جيوش قادها كبار الصحابة في عهد خليفة شديد الغيرة على دينه، فهل مسّوها بالتخريب أو التدمير أو الهدم؟ كلا.. والدليل أنها باقية في أماكنها إلى يومنا هذا.. فهل هؤلاء المتطرفون أكثر غيرة على الدين من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وأبوعبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص، وكل من جاءوا بعدهم من حكام وقادة مسلمين، حتى يقرروا فجأة أن «بلاد الإسلام» تعاني وجود أصنام وطواغيت في ربوعها؟!

ما بالهم إذن؟ هل هي لوثة مفاجئة أم أن تلك الآثار تشعرهم بالدونية وقد عجزوا عن مجاراتها؟

أتعلمون لماذا لم يبتدع أي من أهل الحضارة العربية الإسلامية تلك الفكرة التي ما أنزل الله بها من سلطان؟ لأن تلك الحضارة العربية كانت راقية وقوية وسامية بما يكفي لأن يدرك أهلها أن احترام تاريخ من سبقوهم، إنما هو احترام للحضارة الإنسانية الكبيرة التي أرادوا أن يضيفوا لها.. ولأنهم كانوا أهل عقل وفكر وتأمل، فكان همهم هو معرفة «كيف أقام من سبقوا تلك الآثار» وليس «كيف ندمر تلك الآثار التي تذكرنا بخيبتنا وعجزنا عن أن نأتي بمثلها».. هؤلاء القوم أصحاب مبدأ إهانة التاريخ السابق إذن يهينون الحضارة الإسلامية التي يتشدقون بالانتماء لها، من دون أن يكون لهم فضل في بعثها، بادعائهم أنهم حين يسبون حضارات الأسلاف فهم يُعلون شأن الدين!

إن تلك الحالة هي من مصائب التاريخ، أن يقرر البعض اختصار قرون من الحضارة الراقية في سباب وإساءات فقط ليُسبِلوا أعينهم برضا مسرحيّ وهم يقولون: «الحمد لله على نعمة الإسلام»، ذلك الإسلام الذي لو فهموه حقا لعلموا أنه يحضنا على النظر في تاريخ من كانوا قبلنا لنتعلم من سلبياته وإيجابياته، ليكون المسلمون حقا جزءا فاعلا في حركة التاريخ، لا أمة تضحك من جهلها الأمم.

....

هذا عن إهانة موروثات التاريخ، فماذا عن تحويل التاريخ إلى مجرد حائط مبكى معنوي كبير، وساحة للندب والنواح؟

VIII

منهم لله أولئك الذين حوّلوا قراءة التاريخ إلى ما يشبه حائط مبكى معنوي كبير، جنازة يشبعون فيها لطمًا، مناحة كبيرة.. شيء من هذا القبيل.

أنا لا أتحدث هنا عن النوستالجيا التاريخية، لا، الأمر أكبر من هذا بكثير.. هو لا يقف عند مجرد الحنين للماضي، وإنما لتحويله إلى مادة للبكائيات والمراثي واللطميات.. صحيح أننا ـ وأنا نفسي أفعل ذلك ـ كثيرا ما نذكر بعض المواقف والأحوال التاريخية لمجرد التأمل والنظر في أين كنا وأين أصبحنا، لكن الفارق الكبير بين هذا وبين مجرد البكاء على الأطلال ليل نهار، هو أن الأول يفعلها على فترات متباعدة من دون إفراط في «المُحن» التاريخي، والآخر يفعلها ولسان حاله يقول «يا أولاد الأفاعي! كيف تعيشون وتأكلون وتشربون وتضحكون بدلا من أن تبكوا ليل نهار على المجد البائد؟»!

المفترض أن يكون الغرض الأساسي من قراءة التاريخ هو تحليل أحداثه وتتبعها، للوقوف على علاقة السببية بين كل «حالة» وتلك التي تليها، ثم بعد ذلك معرفة مسببات الأوضاع المعاصرة وكيفية التفاعل معها للتحكم ـ قدر الممكن ـ في المستقبل.. أما القراءة بغرض

مصمصة الشفاه وإطلاق زفرات الحسرة، فهي أبعد ما تكون عن مستهدَف قارئ التاريخ والباحث فيه.

....

وكالعادة، تحمل قراءة التاريخ ـ من الناحية الدينية ـ نصيب الأسد من المسؤولية عن انتشار أسلوب «القراءة البكائية للتاريخ»، خاصة لو تحدثنا عن الدولة العربية الإسلامية في طور الارتقاء والقوة، وبالذات لو كنا نتناول موضوع «الأندلس».. أحيانا أشعر أن بعض من يتناولون هذا الموضوع يصلون لمرحلة «الأورجازم» مع تصاعد مستوى بكائهم وعويلهم المعنوي على ما ضاع من أمجاد وعظمة وشموخ.. هم لا يتناولون التاريخ الأندلسي من منطلق المعرفة والتأمل والتحليل والتفسير، وإنما من منطلق إثارة مشاعر الحسرة والحزن وممارسة جلد الذات.

بعد الانتهاء من تلك الطقوس التي تجمع بين السادية والماسوشية، في آن واحد، تبقى بعض الأسئلة: ما هي الفائدة التي تحققت؟ ما الذي أضيف إلى المُلقي والمتلقي؟ ما الذي أضيف إلى قراءة التاريخ؟ الإجابة: صفر كبير.. كل ما حدث كان تحقيق إنجاز أن يشهد التاريخ لحظة التقاء مهنة الكاتب التاريخي مع مهنة «المِعَدِّدة» في نقطة واحدة!

....

وقد يخطئ البعض فهم هذا النوع من قراءة التاريخ فيحسب أنه دعوة للاعتبار والتأمل في أخطاء الماضي، وإثارة للحماس لإعادة إحيائها، والواقع أن القراءة الناضجة للتاريخ عليها أن تكون موضوعية وخالية من المشاعر والانفعالات، فحين نتناول ـ مثلا ـ أسباب صعود وسقوط الدول نتحدث بالطريقة الآتية: أسباب الصعود: ١.. ٢.. ٣.. أسباب السقوط:١...٢...٣.. مع تحليل كل سبب واستعراضه وتقليبه وتأمله من كل الزوايا، بل والبحث عن أسباب جديدة وأساليب حديثة للتأمل والاستنتاج وربط الماضي بالحاضر.. هكذا تكون القراءة الناضجة للتاريخ.

بل والكارثة الأكبر، عندما يقام الصوان وتقوم المناحة على أشياء تافهة باعتبار أنها من مظاهر «عظمتنا السابقة».. من فترة كتب أحدهم عن أن أبواب المنازل في الدولة العثمانية كان على كل منها مطرقتان.. واحدة كبيرة وأخرى صغيرة، الكبيرة صوتها ينبه من بالدار إلى أن الطارق رجل فيفتح له رجل مثله، والصغيرة صوتها ينبههم إلى أن الطارق امرأة فتفتح لها امرأة مثلها... وهذا «الشيء» الذي قرأته ينتهي بعبارة تخيل كاتبها يقولها بأسلوب تمثيلي درامي «عندما كنا عظماء».. هناك عبقري قرر أن مطرقة باب هي إنجاز حضاري يستحق البكاء والعويل على غيابه! حسنا.. أعتقد أن حصيلة مجتمعنا الضخمة من أمثال هذا العبقري هي من أبرز أسباب تأخرنا عن إحياء أمجاد الماضي!

سؤال بسيط: كل أمة في تاريخها أوقات للصعود والرقي وعصور للاضمحلال والانكسار، فلماذا لم أصادف مثل تلك البكائيات إلا في أمتنا الرائعة؟! هل نحن الأمة الوحيدة التي «عندها دم» من دون كل خلق الله؟!

كيف استطاع الغربيون واليابانيون بناء حضارتهم من دون حائط مبكى معنوي يَعُولون وهم يضربون رؤوسهم على أحجاره؟!

الإجابة: لأنهم تعاملوا مع تاريخهم بنضج.. لم يغالوا في التفخيم ولم يبالغوا في الحسرات.. تعاملوا بشكل عملي لا يعترف إلا بالمعلومات والتحليلات المنظمة.. لم ينظروا إلى إعادة بناء المجد السابق بإشفاق على أنفسهم من شدة صعوبة المهمة ومشقتها، ليقرروا بعدها أن النواح والعويل أسهل وأيسر.

....

والحديث عن البكائيات يقودنا إلى منطقة أخرى.. منطقة «البارانويا التاريخية».. نحن بخير وغيرنا ليس كذلك.. نحن عظماء بالفطرة والعالم يتآمر علينا.. فماذا عن تلك العقدة؟!

IX

هل تعرفون ما هي البارانويا؟ يمكننا أن نلخصها في ثلاث عبارات:

أنا بخير وأنت لست كذلك.

أنا رائع وعظيم ومتميز وأنت تضطهدني لأنني كذلك.

أنت تؤذيني فقط لأنني أنا.

عندما تجتمع هذه العبارات الثلاث في تفسير علاقة عدائية أو فعل عدواني من طرف «أجنبي» ضد طرف «عربي/ إسلامي/ مصري» فاعلموا أننا أمام حالة بارانويا تاريخية!

....

القارئون باستفاضة في التاريخ السياسي، والمتابعون لعالم السياسة، والدارسون للعلوم السياسية، كل هؤلاء يدركون بسهولة أن سياسات وسلوك ومواقف الدول والأنظمة إنما تحركها في الأساس المصالح.. سواء كانت مصالح شخصية للأفراد الذين يترأسون النظام الحاكم أو الذين يؤثرون في سياساته، أو كانت المصالح العامة لهذا النظام ودولته.

أما فكرة أن يقرر هذا النظام أو ذاك أو هذه الدولة أو تلك مناصبة دولة/ نظام العداء فقط لأنها «شكلها مش عاجبه» فهي فكرة شديدة السذاجة والسطحية.. نحن هنا نتحدث عن سياسات توضع وحشد شعبي وتحركات دبلوماسية أو عسكرية ومخابراتية وحرب إعلامية ومليارات تُدفَع هنا وهناك، واتفاقات تُبرَم وضغوط تُمارَس.. يصعب أن أتقبل أن يكون المحرك لكل ذلك مجرد بعض العواطف والمشاعر و«النفسنة».. هذا أمر يليق بمشاجرات الحواري أو جرائم الثأر، لكنه لا يناسب سياسات دولة لا قديما ولا حديثًا.

صحيح أن المعنويات والعواطف قد تُستَخدَم كذرائع ظاهرية أو كأدوات لحشد الجماهير وتحريكها، لكن تبقى المصلحة هي المحرك الرئيسي.

فلنأخذ نموذجا للحالة موضوع هذا المقال تفسيرات البعض ـ البعض الكثير للأسف ـ لمختلف الاعتداءات على المشرق الإسلامي منذ الحروب الصليبية وحتى اليوم.. مبدئيا فإن هذا البعض العبقري قد قرر أن يلقي جانبا كل كتب التاريخ وتحليلات المؤرخين وتتبعاتهم للأحداث والمعطيات، واتخذ صنمه تفسيرا حصريا يرضي غروره «إنهم يعادوننا لأنهم يكرهون الإسلام والمسلمين ولا يريدون للإسلام أن ينتشر»!

دعونا نحسبها.. ٨ حملات صليبية.. هجمات متفرقة للفرنجة من قواعدهم في قبرص ورودس ضد سواحل بيروت وعكا ويافا ودمياط والإسكندرية.. الحملة الفرنسية على مصر والشام.. حملة فريزر ١٨٠٧م.. احتلال فرنسا للمغرب العربي والشام، وإنجلترا لمصر والسودان.. سايكس بيكو.. العدوان الثلاثي.. دعم إسرائيل.. غزو العراق.. حسنا.. الآن يمكننا أن نقوم بإحراق كل الكتابات التي تناولت هذه الأحداث الضخمة باعتبار أنها مجرد هراء، ما دام لدينا التفسير الجاهز: إنهم يكرهوننا فقط لأننا نحن!

بحق الله.. إن القارئ المتمعن في كل هذه الموضوعات السابقة يمكنه بمجهود بسيط أن يدرك الدور الضخم لـ«المصالح» في الأمر، فالحملات المسماة بـ«الصليبية» قامت أساسا طمعا من الأمراء في خيرات الشرق، ومن البابا في السيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية، والتخلص من الأمراء المحاربين المشاغبين بنقل «قلقهم» إلى أرض أخرى، ومن التجار في فتح أسواق جديدة، ومن العوام في البحث عن حظهم في الرزق في مكان آخر والتخلص من العبودية للسادة الإقطاعيين.. وهجمات الفرنجة كانت مجرد حركات قرصنة لم يميزوا فيها بين مسلم ومسيحي ويهودي.. الحملة الفرنسية كانت حلقة في سلسلة الصراع البريطاني الفرنسي على طريق الهند.. الاستعمار الغربي للشرق لم تكن له أية صبغات دينية، بل كان بأهداف اقتصادية في المقام الأول.. ماذا عن إسرائيل؟ هو مجرد دعم لدولة وظيفية خادمة مصالح ولا علاقة له بالدين.. وضرب العراق؟ ألم تسمع عن اختراع اسمه البترول؟ هذا السائل الأسود له قيمة تجعل الدول الكبرى تتصارع على السيطرة على مناطق إنتاجه.

ثم لو أن التحركات العدوانية من «الغرب» تقاس بالدين، فبمَ تفسر قيام إحدى الحملات الصليبية بترك الشام والتوجه لاحتلال بيزنطة المسيحية وإسقاط نظامها وإقامة نظام لاتيني أوروبي؟ لماذا تبادلت سفن إسبانيا وإنجلترا هجمات القرصنة بعضها على البعض في القرون الوسطى؟ لماذا غزا هنري الثامن فرنسا؟ لماذا أسر ملك النمسا ريتشارد قلب الأسد وهو عائد من الشرق؟ ما سبب محاربة البابوية في روما لآل هوهنشتاوفن الذين حكموا ألمانيا وصقلية بقيادة فريدريك الثامن؟ ماذا عن العصر الحديث؟ لماذا غزا هتلر نصف أوروبا؟ هل اليابانيون مسلمون؟ لماذا إذن ضربتهم أمريكا بقنبلتين ذريتين؟ ماذا عن الحرب الباردة؟ وماذا عن قصف أمريكا لصربيا في التسعينيات؟ هل تعلم حجم الأعمال «العدائية» الاستخباراتية الأمريكية في أمريكا اللاتينية المسماة من صقور الإدارة الأمريكية بـ«الساحة الخلفية»؟

ما دور الدين في كل ذلك؟ تقريبا لا شيء.

بل يمكنني أن أقول باطمئنان إن حتى كفار قريش وهم يحاربون الرسول محمد، ومن معه، لم يكن الدين شاغلهم الأول بقدر ما كانت تجارتهم ونظامهم الطبقي ومكانتهم في السلطة هي الشغل الشاغل!

....

ما الهدف من نشر حالة البارانويا هذه؟

أقول لكم.. ببساطة إن من يزرع مثل تلك الأفكار إنما يبث رسالة ضمنية للمتلقي مفادها هو: «نحن لا نحتاج أن نكون منافسين أقوياء للآخر ليدخل معنا في علاقة خصومة أو عداء، يكفي أن نكون نحن، فلا داعي إذن إلى أن نبذل الجهد لنلحق بالركب أو أن نسعى للتطوير من أنفسنا.. ولا تنظر إلى كمّ التقدم الذي حققه هؤلاء فهم قوم عجّل الله لهم حسناتهم في الدنيا بينما ادّخر لنا الآخرة».

طبعا هذه الرسالة هي جزء من «برنامج» كامل غير متفق عليه، مثبت ضمنيا في عقلية هؤلاء القوم.. فعندما يشعرون بالعجز عن التعايش مع محيطهم بسبب التقدم والتطور والانفتاح الثقافي والذهني وتعدد المواهب، وإدراكهم في ذات الوقت قصور مواهبهم وتعطلها وانخفاض فرصهم في الصمود أمام منافسة الآخرين، فإن الحل يكون تثبيط عزائم هؤلاء المنافسين من خلال استخدام أسلحة التحريم والتشدد والانغلاق.. وكي لا يشعر المتلقي بمدى تخلفه عن العالم، فإن الحل هو إقناعه بأن العالم كله يكرهنا، وأننا «الغرباء» في هذا العصر، وأن كل ما يقدمه غير المسلم من تقدم وتطور وتحضر إنما هو من قبيل «السعي الضال في الحياة الدنيا» لأنهم ليسوا مسلمين.

طبعا قِس على هذا المثال تفسيرات بعض المنتمين إلى أفكار أخرى لنفس الأفعال من الآخر.. بين قائل بأنها «نتيجة عداء القوى الرجعية للحركات التقدمية وكفاح الشعوب الكادحة إلخ إلخ..» ومفسر بالقول «إنهم يكرهون العرب ويخشون اتحادهم» أو منادٍ بـ«إن مصر مستهدفة منذ فجر التاريخ.. لأنها مصررررررررا!» إلى آخر هذا الهراء المنفصل عن الواقع! وباسم هذا الهراء يمكنك كمتطرف أن تصبح مجاهدا، أو كطاغية أن تصبح حاميا للدولة، أو كمشروع مثقف وفشل، أن تصبح العلّامة الفذ صاحب الرأي.

هل فهمتم لماذا يبذل البعض كل هذا الجهد من أجل بث فكرة البارانويا التاريخية؟

....

ولأن «عرض» البارانويا لا يأتي وحده، فإنه عادة ما يصطحب معه فكرة مريضة أخرى تقول ببساطة: «نحن مركز الكون.. والأحداث كلها تتمحور حولنا»!

X

هل نحن محور الكون؟

بمعنى، هل هناك أي أسباب عقلانية منطقية تدفعنا إلى أن نعتقد أننا ـ المصريين/ العرب/ المسلمين ـ مركز الكون، وأن أحداث التاريخ كلها تدور حولنا أو بمناسبة وجودنا بشكل أو بآخر؟

هذه إحدى جرائم بعض من يتناولون التاريخ.. إنهم يزرعون فكرة أن التاريخ يتمحور حولنا، وأن ما من حدثٍ يجري إلا وهو مرتبط بنا بشكل مباشر، أو نحن طرف فيه بشكل أو بآخر.

مع أن هذا الكوكب البائس به أكثر من ١٩٠ دولة، قامت في تاريخه القديم وحتى العصر الحديث أكثر من ٢٠ حضارة قوية، به من الأعراق والأجناس والقبائل والشعوب والأمم ما به.. فما الذي يميزنا لنكون أصحاب البطولة المطلقة في هذه الدراما الأرضية، ولنعتبر كل شيء حدث، أو يحدث، أو سيحدث جزءا من المؤامرة الكونية ضدنا؟

تعالوا نحلل الأمر بشكل مبسط، ونأخذ «الغزو والاستعمار» كمثال لأهم أحداث التاريخ: نحن ـ كمصريين ـ قوم شاء القدر أن نعيش في دولة ذات موقع جغرافي شديد التميز، وكعرب وضعتنا يد القدر في بقعة من العالم تتميز ـ فضلًا عن موقعها ـ بتنوع وكثرة مواردها الطبيعية.. عندما يأتينا غازٍ أو يدبر ضدنا متآمر فهل هو يفعل ذلك فقط لكوننا عربًا أو مصريين؟ أم أنه يستهدف الموقع والثروات؟ في ضوء تاريخ الغزوات والحروب ومحاولات السيطرة والاستعمار لمصر والعالم العربي، هل كان موقف الغزاة ليختلف لو كان يعيش في هذه البلاد شعب آخر وأجناس أخرى وثقافات غيرنا؟ وهل كنا لنتصادم مع هذه الدول والشعوب لولا الموقع والثروات الطبيعية؟

أو لنطرح سؤالا آخر: لو كان التاريخ يدور حولنا بالذات ـ وما زلنا مع مثال الغزو والاحتلال والاستعمار ـ لماذا غزت إسبانيا أمريكا الجنوبية؟ ما سر استماتة إنجلترا على استعمار الهند وآسيا؟ لماذا كان الصراع الفرنسي الإنجليزي المرير على استعمار إفريقيا السمراء؟ هل هؤلاء القوم عرب أو مصريون؟

هل تاريخ هذه الشعوب والأمم في إفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية أقل شأنا من التاريخ المصري والعربي؟ هل نضال الأفارقة ضد الاحتلال والعبودية والتفرقة العنصرية أقل من نضال المصريين ضد الاستعمار البريطاني؟ هل غاندي في الهند أقل شأنا من سعد زغلول في مصر؟ هل نستطيع أن نقول إن جيفارا أقل قيمة من عبد الناصر؟

لماذا يتعامل البعض مع التاريخ العالمي باعتبار أن مصر والعرب هم الأبطال وباقي الشعوب والأمم هم «سنّيدة» وكومبارس؟

ولماذا يغفلون حقيقة أن ثمة شعوبًا ودولاً كاملة قامت وسقطت وقامت غيرها، من دون أن تدرك أن على الأطراف الأخرى من العالم قومًا اسمهم المصريون أو العرب أو المسلمون؟ حول مَن كانت تتمحور حياتهم وتاريخهم إذن؟

....

وربما لاحظ القارئ أنني أجّلت تناولت الشق «الإسلامي» من تلك «النظرية»، هذا لأنه الأخطر، فهو يحوّل كل ما يجري في العالم إلى مؤامرة أو منافسة أو عداوة موجهة ضد المسلمين ـ وهو تناوُل مرتبط جدا بـ«البارانويا التاريخية» التي تحدثت عنها في المقال السابق ـ كما أنه لا يبحث عن الرابط المنطقي العقلاني وعلاقات السببية بين مختلف الأحداث والمتغيرات في كل أنحاء العالم، وعلاقة بعضها ببعض ـ ظاهرة كانت أو مستترة ـ بل هو يخلق «نواة» معنوية لكل ذلك هي «المسلمون/ الأمة الإسلامية» ويجعل من الدول والشعوب والأنظمة أجساما تدور في فلكها! كأن الأرض لم تُخلَق قبل وجود المسلمين بآلاف السنين! ولم تشهد دولا وأنظمة وصراعات.. (قارن بين تلك الفكرة وبين فكرة بعض المتعصبين من اليهود عن أن التاريخ هو رحلة الشعب اليهودي وملحمته).

والمثير للتأمل أن نظرية صراع «المسلمين ضد العالم/ العالم ضد المسلمين» تتعارض مع نظرية أخرى لدى نسبة ضخمة من الإسلاميين هي «الحدود والانتماءات السياسية لا قيمة لها، مقابل الانتماء إلى الأمة الإسلامية»، فلو فرضنا مثلا أن الحرب الأمريكية على العراق

هي جزء من حلقة الصراع ضد المسلمين، فما هو موقف المسلم الأمريكي من وجهة نظر من يرون الأمر كذلك؟ هل هو جزء من الأمة الأمريكية المحاربة للمسلمين، أم أنه من المسلمين الموجهة ضدهم الحرب؟ ولو كانت الثانية، فلماذا لا يتعرض لنفس ما يتعرض له «المسلمون» في العراق؟ وهل غارات الأمريكيين تنتقي ضحاياها في الأساس من بين المسلمين أو غيرهم؟

ولماذا يغفل هؤلاء أن القرآن ـ لو نظرنا للأمر من زاويتهم الدينية ـ قد خاطب «الناس»، وليس «المسلمين» فحسب؟! أي أن حتى الكتاب المقدس للمسلمين لم يجعلهم محور الكون! فمن أين أتوا بهذا المعتقد التاريخي الفاسد؟

....

المأساة في ما يتعلق بتلك النظرة للتاريخ أن المريض بها له ثلاث مستويات: الأول هو المريض بها بصفته مسلمًا فقط أو مصريًا فقط أو عربيًا فقط، والثاني هو المريض بها بصفته مسلمًا عربيًا أو مصريًا عربيًا أو مسلمًا مصريًا، أما المستوى الأصعب فهو المصاب بها كمسلم مصري عربي في نفس الوقت، فهو ينظر للعالم بنوع من العنصرية المركبة، وهو ينظر أيضا لمن يشتركون معه في هوية أو اثنتين فقط من الثلاث على اعتبار أنه «من أهل الريبة».. جرب أن تتحدث مع مثل هذا الشخص أو أن تتناقش معه، وستجد مأساة حقيقية.. حالة مثيرة للرثاء!

ولو تركنا مسألة «نحن مركز التاريخ» جانبا، فلن نعدم مشكلات ليست بالأقل خطورة.. مثل «النظرة العاطفية للتاريخ» أو بعبارة أوضح «أن تكتب التاريخ متأثرا بمن تحب ومن تكره»!

XI

من لم يقرأ رواية «أمام العرش» ـ للرائع نجيب محفوظ ـ من المهتمين بعلم التاريخ، فقد فاته الكثير، فمع الاتفاق أو الاختلاف مع بعض أو حتى كل محتوى هذه الرواية التي هي عبارة عن حوار بين أوزوريس، قاضي محكمة السماء الفرعونية، وحكام مصر من مينا

حتى السادات، دعونا نتفق على أنها تقدم منهجا راقيا لعرض التاريخ، هو ببساطة: فلان فعل كذا وكذا.. ثم تترك الباب مفتوحا للنقاش، لتقييم ما كان منه خيرا أو شرا.

هكذا يجب أن يكون تقديم التاريخ في ما يتعلق بسرد أحداثه وتوثيقها، وهو ما يختلف بالطبع مع تقديمه في شكل تحليل أو مقالات رأي بموضوعية وحيادية، وتجرُد من العواطف والمشاعر والأهواء، وعرض لمختلف الآراء ووجهات النظر، وتقليب للأحداث والأشخاص وتأمل لها من كل الزوايا من دون حرج أو تهيُّب أو محاباة أو تغليب لموقف سياسي أو أيديولوجي.

....

يسألني البعض عما سأكتب عن عهد مبارك، أو عهود المجلس العسكري/ طنطاوي، مرسي/ الإخوان، عدلي منصور ثم السيسي.. وعادة ما تكون إجابتي: هذا يتوقف على ما إذا كنت أكتب سردًا وتوثيقًا، أم تحليلاً وعرضًا من وجهة نظري كشاب شارك في ثورة ٢٥ يناير وموجة ٣٠ يونيو الثورية ـ مع الاحترام لكل الآراء فيهما ـ فإذا كنت سأقوم بالتوثيق لما جرى في ٢٥ يناير ٢٠١١ مثلا، فسأعرض كل وجهات النظر، من تلك القائلة بأنها ثورة شعبية عظيمة، وحتى هذه التي تعتبرها نكسة أو مؤامرة، مع استعراض حجج كل منهما. أما لو كنت سأتحدث من «زاويتي»، فسأتحدث كشاب شارك في الثورة وتحمس ـ وما زال متحمسًا ـ لها.

هل هذا صعب؟ بالتأكيد، لكنه ليس مستحيلاً، فلنتأمل مثلا كتابات الدكتور جلال أمين عن العهد الساداتي، فالأستاذ الجليل لا يخفي كراهيته للسادات، بل وفرحته بزوال عهده، لكنه يلتزم في نفس الوقت بالأمانة مع قارئه، فلا يدّعي أنه يقدم له توثيقًا أو سردًا لأحداث هذا العهد، بل يبدو واضحًا أنه يتحدث من زاويته الخاصة ومن منطلق رأيه الشخصي.

ولنتأمل كذلك كتابات المؤرخ اللبناني الدكتور محمد سهيل طقوش، عن مختلف الدول والأنظمة التي حكمت في عصر الحضارة العربية الإسلامية، فهو لا يغلب وجهة نظره

كرجل ذي خلفية إسلامية، أو موقفه كمنتمٍ إلى الثقافة العربية، بل يقدم مختلف الروايات والتوثيقات والآراء بأمانة شديدة، تاركا للقارئ تكوين وجهة نظره الخاصة.. وبحق فإن هذين النموذجين هما مما يجب للمتطرق للتاريخ كتابةً وحديثًا أن يحتذي بهما.

....

لا يتعارض هذا مع حقيقة واقعية هي أن كاتب التاريخ قد يتأثر بالموقع الذي أرادت له الأقدار أن يكون فيه خلال وقوع الأحداث التي يؤرخ لها، فعلى سبيل المثال، يلاحظ قارئ كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» تأثر صاحبه المملوكي أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بموقعه كابن للأتابك تغري بردي، الذراع اليمنى للسلطان والقائد العام للجيش، والمتأمل في كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للعلامة المقريزي يلحظ شدة اعتنائه بأدق تفاصيل الحياة الاقتصادية لعامة المصريين، بحكم اشتغاله بوظيفة «المحتسب» القائمة على تنظيم ومراقبة الظروف المعيشية للرعية آنذاك، وفي العصر الحديث يبدو جليا في كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل تأثره بفترة اقترابه من صناع القرار في العهد الناصري.

ليس في كل ما سبق ما ينتقص من مصداقية المؤرخ، فهو في النهاية إنسان، ومهما بلغت قدراته واتساع أفقه فإنه لا بد متأثر بظروف معاصرته للأحداث وموقعه منها، لا ينال منه إلا إخفاء أو إغفال متعمد لحقائق واقعة أو محاولة لتزوير ما حدث بالفعل أمامه، فالتزام المؤرخ هو ما يمكن وصفه بلغة القانونيين بأنه «التزام ببذل عناية» لا «التزامًا بتحقيق نتيجة»، فليس مطلوبًا منه أن ينجح في مهمة تقديم تأريخ دقيق موضوعي محايد بنسبة ١٠٠٪، بل مطلوب منه أن يبذل قصارى جهده لتحقيق أقصى درجات الموضوعية والحياد والدقة والتجرد، فهو كالمجتهد في أمور الفقه، إن أصاب حُمِدَ، وإن بذل الجهد وأخطأ حُمِدَ أيضًا.

....

وثمة سؤال هام: هل مما ينتقص من مصداقية المشتغل بالتاريخ أن يعلن مسبقًا عن مواقفه وانحيازاته؟

الإجابة هي: لا.. ليس بالضرورة، فلو سمح لي القارئ أن أقدم نفسي كمثال متواضع، فأنا ـ مثلا ـ يعرف أغلب قرائي أنني ليبرالي التوجه، وأنني شاركت في ثورة ٢٥ يناير وانتفاضة ٣٠ يونيو ـ مع إعادة التأكيد على احترامي لكل الآراء المخالفة للوصفين ـ وأنني أعتز جدا بالحضارات الفرعونية والبطلمية والقبطية والعربية الإسلامية، وأنني أبغض الفترة العثمانية ودولتها، وأعتبرهما أحط ما شهد التاريخ الشرقي، وأنني أنظر بعين البغض إلى عهود مبارك وطنطاوي ومرسي، وبعين الإشفاق وخيبة الأمل والخوف على الوطن من عهد السيسي، لا مشكلة عندي في أن يعرف القارئ ذلك، بل إنني أرى أن هذا من حقه عليّ، تحسبًا لأي ميل أو انحياز غير مقصود قد يحدث مني فيأخذ حذره.

كذلك فإن ميل كل من الأستاذ هيكل والدكتور جلال أمين للعهد الناصري، لا ينال من مصداقيتهما عندي، واعتزاز كل من الدكتور حسين مؤنس والدكتور محمد سهيل طقوش بالثقافة الإسلامية لا يضعفهما كمؤرخين، فالمؤرخ ليس آلة جامدة بلا مشاعر، بل هو بشر يكتب تاريخ بشر مثله.. فأي بأس في هذا؟

....

المشكلة تقع عندما يؤثر فكر وموقف المشتغل بالتاريخ في سرده للأحداث.. لقد ضربت مثالاً في مقال سابق بكتابات الدكتور علي محمد الصلابي، عن الدولة العثمانية ومحمد علي باشا وعن الدولة الزنكية، ومدى تعصبه وانحيازه وتأثير أيدولوجيته في سرده للأحداث، وأحيل القارئ كذلك إلى كتاب «الدول العلية العثمانية» للمؤرخ والمناضل الوطني محمد فريد بك، الذي يبدي انحيازا رهيبا للدولة العثمانية، إلى حد أنه في تناول أحداث القتال بين تيمورلنك والسلطان بايزيد وهزيمة هذا الأخير على يد الأول، وأَسْرِه ووضعه في قفص حتى الموت، يتحسس من ذكر تلك الحقيقة، فيقول إنه وُضِعَ في هودج فاخر، كأن الأمر أقل وطأة!

....

ولو تركنا جانبًا مشكلة تأثير العاطفة على تناول التاريخ، فإننا نجد أنفسنا أمام مسألة أخرى هي: الحساسية تجاه قراءة التاريخ من زاوية «الآخر»، بالذات لو كان هذا الآخر منتميا لما يمكن وصفه بمعسكر «العدو».

XII

تقول الحكمة «اجعل أصدقاءك قريبين، واجعل أعداءك أقرب»

ولو أن ثمة بديلاً للاقتراب المادي، فهو في عصرنا هذا الاقتراب المعنوي، بالاطلاع على ما يخص العدو والاستزادة من المعلومات والمعارف عنه، حتى لكأنك تعيش معه.. بلى، فمعرفة ما يخص العدو وتفاصيل أوجه حياته المختلفة هو من أهم مكونات حروب وصراعات ومنافسات هذا العصر، بل والعصور السابقة كذلك.

وإن كانت منافسات الدول والأنظمة تقوم على المعلومات الاستخباراتية وعمليات الاستطلاع والتجسس والتحليل، فإن ثمة وسيطًا معلوماتيًا أساسيًا لهذه المنافسات والصراعات على مستوى الشعوب هو: القراءة.

وللأسف، فإن مجتمعنا ـ المصري والعربي ـ ليس على المستوى المطلوب فيما يخص التعامل مع ذلك الوسيط، فبينما تقاس مبيعات الكتب في أوروبا وأمريكا بالملايين فإنها عندنا تقاس بالآلاف.

ويزيد الأمر سوءًا معاناتنا من آفة، هي الحساسية من الاطلاع على تاريخ العدو/ الخصم، سواء كان تاريخه الخاص، أو التاريخ المكتوب بيديه.

انظر حولك، كم من معارفك المتحمسين للقضية الفلسطينية بشكل خاص، والعربية بشكل عام، لديه اطلاع على الكتابات الإسرائيلية عن تلك القضية أو عن تاريخ أرض فلسطين؟

كم منهم يسمع عن الدكتور إسرائيل شاحاك ـ وهو لاصهيوني بالمناسبة ـ وكتاباته عن التاريخ اليهودي، أو عن يوشع براور وكتاباته في موضوع الحروب الصليبية في فلسطين والشام؟ من منهم سمع عن برنارد لويس وكتاباته عن السياسة الإسلامية أو كتابه عن فرقة الحشاشين الشهيرة في العصور الوسطى؟

في ضوء إجابتك يمكنك أن تعرف أي نقص يعتري فهمنا للآخر.

....

في العصور الوسطى ـ وتحديدا عصر الحروب الفرنجية في الشرق والمعروفة بـ«الصليبية» ـ عاش رجل اسمه الأمير أسامة بن منقذ، هذا الرجل كان من أبرز أبناء مدينة شيزر الشامية، وكان أديبًا ومحاربًا وسياسيًا ودبلوماسيًا ومؤرخًا، وضع كتابًا يصنفه الكثيرون كأول سيرة ذاتية معروفة في التاريخ هو «كتاب الاعتبار».

في هذا الكتاب دوّن ابن منقذ تجاربه وأسفاره ومشاهداته، وما جمع من معلومات خلال سنوات عمره التي تجاوزت التسعين، وقضى جزءًا كبيرًاا منه يتنقل بين المدن المحتلة من قِبَل الفرنجة في المشرق، ويتعرف قادتهم وأمراءهم وفرسانهم، ويدخل بيوتهم وحصونهم خلال فترات الهدنة ومعاهدات السلام، ليخرج لنا عمله الرائع الذي يقدم لنا أقرب وأدق وأعمق صورة عن حياة الغزاة الصليبيين في الشام.

والسؤال الآن: لماذا لم يتحسس معاصرو أسامة بن منقذ من رحلاته هذه؟ ولماذا لم يتعرض للاتهام بالخيانة والتطبيع مع العدو؟ بل بالعكس، لقد احترموه واستعانوا به، وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي نفسه.

الإجابة هي أن الرجل قد عاش في عصر كان العرب فيه يقدرون المعرفة ويثمّنون الجهد المبذول لجمعها، ويتعاملون معها باعتبارها أهم مواطن القوة للتغلب على العدو.

وعلى غرار ابن منقذ كان الرحالة ذو الأصل الغرناطي الحسن بن محمد الوزان، المعروف بـ«ليون الإفريقي»، فهذا الرجل الذي انتقل صبيا للمغرب إثر سقوط غرناطة في يد الإسبان، تنقل بين بلدان شمال إفريقيا وصولا إلى مصر، وتعرض للاختطاف في البحر على أيدي قراصنة أوروبيين، قدموه هدية للبابا في روما الذي تبناه وجعله يعتنق الكاثوليكية، فبقي في روما فترة لا بأس بها معاصرا حروب العثمانيين ضد أوروبا، ثم هرب إلى تونس وعاد إلى دينه ـ الذي لم يغيره إلا ظاهريا خلال فترة أسره ـ ودوّن تجاربه ومشاهداته، فلماذا لم يتهم بالخيانة وموالاة العدو؟ لنفس الأسباب السابقة.

والآن، نرى أناسًا يعتبرون مجرد قراءة كتابات الجانب الآخر ـ العدو/ الخصم ـ في التاريخ محض هرطقة وتطبيع، وغيرهم يخشى قراءتها بحجة أنها قد تؤثر سلبا في نظرتنا إلى العدو، وقد تخلق حالة من التعاطف والتطبيع معه، وآخرون يعتبرونها مجرد مضيعة للوقت لا طائل منها، فهم يرفعون الهتافات والشعارات المناهضة لهذا العدو من دون أن يتسلحوا بالضروري من المعرفة حوله.. ولا أعرف بحق الله كيف للمرء أن يطمح إلى هزيمة عدو يجهل أغلب ما يتعلق به، وتتلخص فكرته عنه في صور نمطية جاهزة ومتواترة، بل ويمتد تحسسهم هذا إلى أي كتابات لأي «آخر» رغم أن هذا الآخر يضم أسماء معروفة بالموضوعية والأمانة، مثل جوستاف لوبون وزيجريد هونكه وجون لويس إسبوزيتو وغيرهم، وكذلك رغم أن من قاموا بترجمة وتحقيق كتابات الآخر –عدوًّا كان أو صديقًا أو محايدًا ـ هم أناس ثقات متمكنون من التاريخ، مثل الدكتور قاسم عبده قاسم، والدكتور سهيل زكار وغيرهما، وهم حريصون على تصحيح وكشف أي مغالطات أو أخطاء ترد في النصوص الأصلية.

إننا للأسف نفتقر حقًا إلى تلك الروح القديمة في التعامل مع كتابات الأطراف الأخرى المنتمية للتنافس العالمي الدائم بين الشرق والغرب، تلك الروح التي ساهمت في القوة القديمة السابقة للمشرق العربي الإسلامي في مواجهة التحديات.

وفي مقابل هذه الآفة، نرى آفة لا تقل خطورة، هي مما حملت لنا سلبيات مواقع التواصل الاجتماعي ـ فلكل شيء سلبياته وإيجابياته بطبيعة الحال ـ تلك الآفة هي ترك القراءة الجادة للتاريخ والاتجاه إلى ما يمكن وصفه بـ«التاريخ الجاهز المعلب» كوسيلة للمعرفة.

XIII

ذات يوم استمعت بالصدفة لبرنامج إذاعي يستضيف شيخًا أزهريًا يتحدث عن سماحة الإسلام، وفي سياق حديثه قال الشيخ: «صلاح الدين الأيوبي ذهب بالدواء إلى ريتشارد قلب الأسد خلال حربهما».. حسنا، الظريف في الأمر أن كلا من صلاح الدين وريتشارد لم يلتقيا قط في حقيقة الأمر، بل كان الحوار بينهما يدور عادة من خلال وسيط أو ممثل عن صلاح الدين.. فضيلة الشيخ الأزهري إذن استقى معلوماته من فيلم «الناصر صلاح الدين» للمخرج الفذ يوسف شاهين، والذنب ليس على يوسف شاهين، بل على الشيخ المحترم الذي لا يعرف الفرق بين الدراما والتاريخ!

وعلى موقع فيسبوك، هل يعلم القارئ كم أتعثر يوميا في «بوستات» تروي أحاديث منسوبة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مواقف من المفترض أنها تاريخية أو معلومات مقتضبة بطريقة «هل تعلم» أو «موقف وقع لرجل حكيم أو لأحد الصالحين»، وهي من أولها إلى آخرها مختلقة؟

وأما عن التاريخ المحشور في الخطب والدروس الدينية، فحدث ولا حرج، فيومًا ما سمعت خطيب الجمعة يقول: «قال سيدنا الحجاج بن يوسف الثقفي رضي الله عنه...» الحجاج؟! سيدنا؟! ورضي الله عنه؟! ماذا عن الشيخ الذي كان يروي قصة عن معاوية بن أبي سفيان ونائلة بنت الفرافصة ـ أرملة عثمان بن عفان ـ وأن معاوية عرض عليها أن «نعيش لنا يومين» ـ كما قال راوي القصة ـ فكان ردها: «ياللي انت غاوي الجمال روح الترب واتطلع تلقى الجمال بقى رمم والعضم متخلع»؟ هل تضحك؟ إنها مأساة! كوميديا سوداء!

هذه ليست من مشكلات تناول موضوع التاريخ، بل هي من مصائبه.. التاريخ المعلب الجاهز.

....

لا عجب إذن من أن هناك من يصدقون الروايات عن أسر قائد الأسطول السادس الأمريكي، أو عن انحدار الرئيس عبد الفتاح السيسي من أصول يهودية واشتراكه في مؤامرة ماسونية كبرى، أو أن الدكتور محمد البرادعي مسؤول عن غزو أمريكا للعراق، فالتاريخ أصبح ملطشة لكل من هب ودب!

المكتبة التاريخية المصرية زاخرة بالكتب ـ تراثية ووسيطة ومعاصرة ـ في مختلف جوانب التاريخ ومختلف حقبه، ومع ذلك فهناك دائمًا ذلك «البجح» الذي تواتيه الجرأة على اختلاق الوقائع وصياغتها بشكل يعلم الله وحده ما هدفه منها، لأنه ـ البجح ـ يعلم أنه سيجد دائما ذلك الأحمق الذي يصدقه ويتداول مع حمقى آخرين أكاذيبه واختلاقاته.

نحن هنا لا نتحدث عن تزوير التاريخ بغرض خدمة مصالح سياسية أو أيديولوجية، فعلى الأقل هذا النوع من المزورين لديه الحد الأدنى من الذكاء ليتقن جريمته، لكننا أمام واقعة ينطبق على مرتكبها وصف «متآمر وأحمق»!

هو ليس ذلك الوغد البارع الخبيث الذي يمارس تآمره في الغرف المغلقة وهو يبتسم بشرٍّ ودهاء، بل هو ذلك «الزَّيّاط» الذي يستغل حالة «الزيطة» العامة في مجتمعنا المصري السعيد!

المشكلة أننا لم نتعامل مع هذا النوع من الاعتداء على التاريخ بجدية إلا عندما انتشر وتفشى، وتحول من حالات فردية مثيرة للسخرية والاستهزاء إلى ظاهرة ذات طول وعرض وارتفاع، فاكتشفنا متأخرين أنها كارثة كان ينبغي التعامل معها بحزم منذ بدايتها بطريقة «اقتلوه قبل أن يتكاثر».

....

هذه البضاعة العفنة لم تكن لتلقى رواجًا لو لم يكن لها زبونها، فلكل حبة فول فاسدة كيالها الأعمى، ونحن منذ تحولنا إلى قوم لا يقرأون صرنا نهبًا مباحًا لكل نصاب يجيد صياغة أكاذيبه بشكل يستفز الحماس الديني، أو الوطني، فيصيغ كذبته بطريقة تداعب هاتين العاطفتين، فتجد أُذنًا صاغية وعينًا منتبهة وشفةً يمصمصها صاحبها طربًا وهو يقول: «يا سلام»، ويسارع بنشرها وإرسالها إلى عشرة لتعم الفائدة ويقرأها غيره، فينشرونها متحمسين، وهكذا، حتى يصل هؤلاء المغفلون للأورجازم التاريخي الوطني والديني، بفعل الحبة السحرية التي اخترعها أحدهم لتغني البشرية عن التعب في القراءة والبحث والتوثيق والتحليل.

فيمَ إذن كانت قرون من الإبداع التاريخي، تأريخًا وتحليلاً وتفسيرًا ونقدًا؟ هل نلقي مؤلفات مانيتون وهيرودوت وابن تغري بردي وابن خلدون والجبرتي، وغيرهم، في صفيحة القمامة، ما دام لدينا عباقرة معاصرون يقدمون لعقولنا البديل السحري؟ لا عجب إذن ألا تقوم الدنيا لما جرى منذ سنوات من هدم وتجريف قبري ابن خلدون والمقريزي بالقاهرة، فلو كنا في مجتمع يحترم العقل ما كان هذا ليكون مصير علم التاريخ، تجريف لقبور المؤرخين، ثم تجريف لعقول الناس.

والحل؟ لقد صار هذا مملاً.. فمن لا يرى من خلال الغربال أعمى! وبعض المشكلات يتلخص حلها في «شايف ده؟ ماتعملش زيه».. من دون كثير ثرثرة ولغو.

....

ولنترك هذه المشكلة جانبًا ـ إلى حين ـ ولنتناول مشكلة أخرى، هي ذلك الاتهام الدائم لصناع الدراما التاريخية بأنهم يشوهون التاريخ.

XIV

ذات مرة، كتبت على فيسبوك: «اذكر بعض الاختلافات بين الواقع وما ورد في أحد الأعمال الدرامية الشهيرة»، فوجئت بتعليق يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل في صناع الدراما الذين يزورون ويشوهون تاريخنا».

عبثا حاولت أن أشرح لصاحب التعليق أن ثمة مسافة تفصل بين العمل التأريخي العلمي، والعمل الدرامي الذي يهدف في المقام الأول إلى تقديم صورة سينمائية ودرامية ثرية وجميلة.. لكنه للأسف لم يقتنع، وبقي على موقفه المتصلب، متحججًا بأن على صناع العمل التنويه إلى أنه عمل خيالي لا يمت للواقع بصِلة، وعبثًا حاولت مرة أخرى تنبيهه إلى أن الخطأ لا يقع على صناع الدراما، وإنما على من يستقون معلوماتهم من الروايات والمسلسلات والأفلام التاريخية على اعتبارها حقائق لا شك فيها.

....

تلك من مشكلات التعامل مع التاريخ، أن كثيرًا من الناس يعتمدون في تحصيل المعلومات عنه على الروايات والأعمال التمثيلية، والنتيجة: كثيرون يعتقدون أن صلاح الدين ذهب متنكرا إلى معسكر الفرنجة لمعالجة جرح ريتشارد قلب الأسد، وأن الهكسوس احتلوا طيبة بعد مقتل سيكننرع، وأن قطز كان ملاكًا مثاليًا معصومًا من الخطأ، وغيرها من الأمور التي لا تعدو أن تكون لمسات درامية على الأحداث، وضعها صناعها بحسن نية غير متوقعين أن يعتبرها البعض حقائق مطلقة، هذا إن افترضنا أن في التاريخ - أو الحياة بشكل عام - ما يمكن وصفه بالحقيقة المطلقة.

الناس - إلا من رحم ربي - بين متطرف في الخلط بين الواقع والدراما، ومتطرف في رفض وإدانة أي مساس درامي بالتاريخ.

....

لكن، هل هذا يعني أن صانع الدراما وكاتب الأدب لهما مطلق الحرية في التعامل مع المعطيات التاريخية لخدمة العمل؟ بالطبع لا، فثمة مقولة للكاتب الفرنسي ألكساندر

دوماس صاحب الروائع، مثل «الفرسان الثلاثة» و«كونت دو مونت كريستو» وغيرها، هي: «لا بأس في أن تعتدي على التاريخ، بشرط أن ينجب منك طفلا جميلا»، ولكي يكون «الطفل جميلاً» لا بد من مراعاة بعض الضوابط الأخلاقية خلال عملية التعامل بالتعديل مع الأحداث والمعلومات التاريخية.

فلا يصح مثلا أن يتجاوز صاحب العمل حدود المرونة في التعديل الدرامي للتاريخ إلى منطقة «تشويه التاريخ»، كأن يجعل عمله الدرامي/ الأدبي مُسَيَّسًا بغرض النيل من شخصية أو فصيل سياسي أو تيار بعينه، أو أن يكون هدفه تلميع هذا الحاكم أو ذاك، أو خدمة نظام يحابيه سواء بتقديم صورة مثالية له أو بشيطنة بعض خصومه.. هل يريد القارئ مثالا؟ يكفي أن يشاهد بعض الأعمال الدرامية التي تقدم الملك فاروق فقط في صورة الطاغية العابث الفاسد الدموي الهاتك للأعراض، أو التي تخلط بخبث بين الصهيونية واليهودية، أو التي تكرس العمل كله لتمجيد حاكم أو نظام معاصر لها.

مثل هذه الأعمال لا يمكن وصفها بالطفل الجميل، فهي تمثل انتهاكًا ليس للتاريخ وحده، بل للفن كرسالة راقية، وكذلك لأخلاقيات الإبداع الذي يفترض أن يكون هدفه إضافة مزيد من الجمال إلى عالم به من القبح ما يزيد ويفيض.

....

قديما قال بعض الفلاسفة إن الفضيلة تقع دائمًا بين رذيلتين، كذلك يقع الإبداع الفني بين التشدد والتنطع من ناحية، والإهمال والنفاق من ناحية أخرى.. وفي كل الأحوال فإن على المتعامل مع علم التاريخ أن يعتدل في تقييمه الأعمال الأدبية والدرامية التاريخية، فلا يكون مائعًا متراخيًا ولا متزمتًا متنطعًا.. وفي كل الأحوال دعونا نتفق على قاعدة: العمل الأدبي والتمثيلي يجب تقييمه في المقام الأول بقواعد الأدب والفن، بينما للعمل الوثائقي والتأريخي الذي يهدف إلى تقديم التاريخ بشكل علمي قواعد وضوابط تقييمه المختلفة تمامًا عن تلك المنتمية إلى عالم الفن والأدب.

1. الغلاف
2. ١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
3. فن التاريخ
4. عن هذا الكتاب
5. العابثون بالتاريخ - الجزء الأول
6. العابثون بالتاريخ - الجزء الثاني
7. هل كانت حقًّا «جاهلية»؟
8. بين البارحة واليوم - الجزء الأول
9. بين البارحة واليوم - الجزء الثاني
10. بين البارحة واليوم - الجزء الثالث
11. بين البارحة واليوم - الختام
12. دماء على عتبات الإله - الجزء الأول
13. دماء على عتبات الإله - الجزء الثاني
14. دماء على عتبات الإله - الجزء الثالث
15. دماء على عتبات الإله - الجزء الرابع
16. دماء على عتبات الإله - الجزء الخامس
17. دماء على عتبات الإله - الختام
18. في حضرة التاريخ